الشعر الحديث في الحجاز

للاستاذ عبد الرحيم ابو بكر

بقلم : د . محمد بن سعد بن حسين

لقاؤنا هذا حول كتاب (الشعر الحديث في الحجاز ـ للاستاذ عبد الرحيم ابو بكر احد ادباء المدينة المنورة ومن رجال التعليم بها وهو الان مدرس بالكلية المتوسطة بالمدينة المنورة على صاحبها افضل الصلاة وازكى التسليم ..

اما كتابه هذا فانه بحث نال به درجة الماجستير في الادب العربي من كلية الاداب بجامعة القاهرة سنة ١٣٩٣ هـ وهو من اصدارات النادي الادبي بالمدينة المنورة من القطع الكبير وهو كتاب حسن المادة ولعل عرضنا له يثبت ما قلناه ..

افتتح الكتاب بمقدمة للدكتور شكري محمد عياد اثنى فيها على الباحث وبحثه الذي نال به الماجستير وكان الدكتور عياد هو المشرف على البحث ومن هنا لم تحو المقدمة اكثر من الثناء ولقد اثبت في اكثر من مناسبة ان العمل الجيد خير من يقدم نفسه وان الكاتب الجاد هو الذي يقدم كتابه وان اللجوء الى مشاهير الاساتذة والكاتبين انما هو نابع من امرين احدهما شعور الكاتب بالنقص والثاني حرصه على ترويج الكتاب وربما جمع الامرين معا ومثل مقدمة الدكتور عياد هـذه لم تأتنا بجديد وليس فيها مايعيد ، لانها لم تقدم صورة للكتاب أو تصور لمحتواه ولم تعرفنا بالمؤلف كما لم تعرفنا بمؤلفه وانما هي كلمة ثناء ومن المقدمة التي كتبها المؤلف لكتابه حدد الفترة التي جعل الشعر فيها موضع بحثه وتبدأ بعام ١٣٦٨ هـ فاما الاسباب التي حددت فترة البدء واهمها الثورة العربية ضد الحكم التركي ، فمعقولة واما الاسباب التي حددت فترة النهاية فان اهمها سببان ، اهمهما انها الفترة التي اعقبت الحرب العالمية الثانية وفيها كثر الانتاج الشعري في الحجاز والثاني وعد بلفور واحتلال فلسطين .

فاما الاول فغريب ان يجعل بحثه ينتهي عنده ، كيف يقف حيث يغزر الانتاج ويكثر وتتعدد مذاهبه واتجاهاته . لا نستطيع قبول هذا السبب الا مصحوبا بكثير من الشكوك التي ربما كان في المقدمة منها تحرج الباحث من نقد شعر شعراء فيهم استاذه او قريبه أو زميله او صديقه او نحوا من ذلك ، من العلاقات الاجتماعية فانه لايجوز قبوله في اطار البحث الادبي والدراسات الاكاديمية فنحن اذا قلنا كلمتنا في ادب ما فانما نقولها بعد اقتناع بما توصلنا اليه من نتائج كان قولنا ثمرة لها وحينئذ لا نكون قد اقترفنا ذنبا في حق العلاقات الاجتماعية اما الثاني فيبدو ان الاستاذ عبد الرحيم اتى به مرجحا للسبب الاول ومقويا له والا فهو يعلم ان جعل العصور الادبيـة تابعـة للاحداث التاريخية .. انما كان حين كنا لا نستطيع ضبط زمن الاتجاهات الادبية والتغيرات الفكرية اما وقد كان في امكاننا تحديد ذلك فان الاحداث التاريخية يجب ان ترفع سلطانها عن العصور الادبية ، واذا كان لابد من الاخذ بالاحداث التاريخية فان الاحداث الألصق بالبيئة التي نشأ فيها الشعر المرشح للدراسة ، هي التي تكون اولى باستعمالها اذا كان ولابد من الحدث التاريخي

ووفاة الملك عبد العزيز ، رحمه الله عام ١٣٧٣ هـ لا يفصل بينها وبين الزمن الذي جعله نهاية لبحثه غير خمس سنين ، افلا يكون ذلك اولى .

وقد قسم الباحث بحثه الى اربعة ابواب اولها في البيئة الحضارية ، والثاني عن الشعر في العصر العثماني والثالث عن تيار التقليد والمحافظة ، والرابع الاتجاه التجديدي ، وهذا يعني ان نصف الابواب في غير موضوع البحث ..

ان اعطاء صورة عن البيئة التي نشأ فيها الشعر ، امر ضروري ، ولكن ذلك لا يتطلب ان يكون هذا نصف البحث .. ان الباب الثاني جزء من مباحث الباب الاول ويمكن ان يكون فصلا من الباب الثالث ومثله في ذلك الباب الاول فلو انه وازن بين موضوع بحثه ومقدماته فاعطى البيئة والعصر العثماني الثلث أو اقل ، وهو كثير لكان ذلك احسن ولقد احس الاستاذ عبد الرحيم نفسه بذلك ، وقال في صدر الباب الاول : « هناك اتجاه لدى بعض الباحثين يرى ان دراسة الادب يجب ان تكون بمعزل عن المؤثرات البيئية زاعما ان الوقوف عند هذه المؤثرات وفحصها قد يوحيان باحكام مسبقة على الانتاج الادبي المدروس ، وفي مقابل هذا الاتجاه النقدي نجد اتجاها اخر يقيم الدراسة الادبية على اساس من البسط بين الانتاج الادبي والبيئة ، بل انه يحاول ان يستشف صورا للمجتمع من خلال دراسة هذا الانتاج ، ولعل الباحثين من شباب الجامعات هم اظهر مثال على ذلك وزيادة على انه قول يريد به تبرير عمله فانه يريد من خلاله أن يثبت ان مبدأ الراي القائل بضرورة دراسة البيئة رأي جديد وان طلاب الجامعات المتأخرين هم الذين يميلون اكثر لذلك وهو متناس لما يقوله شيوخنا من ان الادب مرآة المجتمع التي تعكس بصدق وجلاء ماهو عليه من احوال ، وان قدم لاتحول دون الاخذ به وان الحداثة وحدها لاتبرره والباحث المنصف المخلص لاتعنيه الجدة او القديم بقدر ما تعنيه الحقيقة ذاتها ..

وبعد ان قضى خمس صفحات في تحديد الحجاز يقول في ص (٨) :و مما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد ان الحجاز كان ولا يزال مهوى افئدة المسلمين من شتى انحاء المعمورة وبسبب هذه الميزة الخاصة التي تمتع بها منذ بزوغ فجر الاسلام ، ولو انه اضاف الى ذلك .. « والعرب من قبل ذلك » لأتم المعنى لان الحجاز وبخاصة مكة المكرمة منذ رفع ابراهيم واسماعيل عليهما السلام بناء البيت والعرب تحج اليه وتعظم مكانته في نفوسهم كلما طال به الامد الى ان ضعف الايمان في قلوبهم ثم انتفى عنها فألحدوا فيه بظلم حتى جاء الاسلام فطهره وزاد ان جعله قبلة المسلمين وموضع اداء احد اركان الاسلام وما الى ذلك مما جاء به ديننا الحنيف ..

ولقد وضع للباب الاول عنوانا هو (البيئة الحضارية) ويبدأ من ص ٣ الى نهاية ٦٥ وفيه تحدث عن شكول من المعاني والموضوعات فحدد الحجاز ثم اوجز الكلام عن المجتمع الحجازي ايجازا لا يعطي الصورة الكافية لهذا المجتمع الذي ينتهي من الحديث عنه في ص ١٢ لينقل الحديث الى مايشبه ان يكون خلاصة تاريخية للحجاز في العصر الحديث ولكنها خلاصة وان كانت حسنة الا انها لاتظهر للدارس ابعاد الاحداث التي جرت على اديم الحجاز وتنتهي هذه الخلاصة المضطربة في ص ٣٢ ليبدأ من ص ٣٣ الحديث عن الحياة العقلية حيث تحدث عن التعليم والطباعة والمكتبات والصحافة باحاديث طيبة اعطت صورة حسنة للحياة العقلية بالحجاز في تلك الفترة التي حددها الباحث لبحثه . لا يضير هذه الاحاديث .. انها خلاصات لم يمد صاحبها النفس في الحديث عنها .. ولعل عذره في ذلك انه يقدم توطئة يريد بها ان يوجد ارضيه صالحة لدراسة الشعر في هذه الفترة ..

اما الباب الثاني وعنوانه الشعر في العهد العثماني التركي فانه يبدأ من ص ٦٩ وينتهي في ص ١١٥ وكأنه عقد هذا الباب ليعرف بالشعراء في تلك الفترة من تاريخ الحجاز ونعني بها ما عناه هو وهو العهد العثماني التركي فلقد تحدث في هذا الفصل (سبعة) من الشعراء وهم السيد جعفر البيتي والشيخ عمر عبد السلام الداغستاني ومحمد امين الزللي الخطيب ، وعبد الجليل براده وعبد الواحد الجوهري الاشرم المكي ، والشيخ ابراهيم الاسكوبي والشيخ محمد العمري ..

وقد تخلل الحديث عن هؤلاء السبعة اشارات موجزة لاتكفي الدارس لادب تلك الفترة الى ما اعترى الحديث عن هؤلاء الشعراء من نقص وكان يمكنه ان يمد الحديث في هذه الفترة وان كان ذلك خارج الاطار الاساسي للبحث ، وهذا يفضي بنا الى قول اخر في هذين البابين الاولين ، وهو ان هذا الكتاب يحتوي على أربعة أبواب ، الثالث والرابع هما صميم البحث واما الاول والثاني فانهما بمثابة التوطئة

والتمهيد له ، ومن هنا يحق القول ، بانه اعطى هذا التمهيد اكثر من حقه فهو يشكل بابين ، وصميم البحث ونظامه وان كنت ارتاح الى هذه المخالفة لكونها تناولت فترة من تاريخ ادبنا ، مازلنا في حاجة الى أن تجلوها اقلام الباحثين ، فعمله حسنة من جانب ، وسيئة من جانب آخر .

اما الباب الثالث فانه يبدأ من ص ١١٥ وهو بعنوان الشعر في عهد النهضة وفي صدره اجمل في صفحتين الحديث عن الشعر في الحجاز ولعله اراد ان يوطيء بذلك لجزئيات هذا الباب وهي .

الشعر في عهد النهضة (تيار التقليد والمحافظة) المديح - الرثاء والغزل - الفخر المعارضات - النزعة الوطنية - الوصف - النزعة القومية ومن ص ١١٨ بدا الحديث عما سماه (تيار التقليد والمحافظة) وكانه احس بشيء من الحرج من هذا أو أنه لم يسع هو نفسه بما يقول لما اردف قائلا في ص ١١٨ ولعلي في اختيار هذا العنوان لم اخرج باستخدام لفظتي (تقليد ومحافظة) عما اراده بهما بعض النقاد المعاصرين الذين تصدوا لتقويم الشعر العربي الحديث منذ نهضته وبعثه على يد البارودي . في مصر حتى يومنا هذا وكان يمكنه ان يحذف الكلمة الاولى فيتقي الحرج ولن يقول له احد اخطأكما لن يحتاج الى هذا القول الذي يشبه الاعتذار) على ان لبقاء مثل هذه الكلمة (التقليد) ما يبرئها اذان جل شعر الرواد الاوائل كالاستاذ الغزاوي مثلا تقليد ،و عندى ان هذا ليس بعيب اذ ان التقليد دائما هو مفتاح التجديد ولان المجدد لايمكن ان ينطلق من فراغ .

وعلى أي حال فكلمة تقليد كلمة لا غبار عليها لدى المتخصصين العارفين على ان قولي هذا يجب ان يؤخذ المأخذ اللائق به فلا يفسر بانه دعوة الى التقليد في عصر لايتطلبه اذ ان من المعلوم لدينا جميعا ان التقليد يكون في مرحلة تكون في البداية وهذه فترة قد اجتازها ادبنا منذ زمن ليس بالقصير واول ما تناوله الباحث من موضوعنا هذا البحث من كتابه المديح وفيه عرض لشاعرين هما احمد ابراهيم الغزاوي وفؤاد شاكر .

فاما الغزاوي فقد درس مذهبه من خلال قصيدتين اولاهما الدالية التي نظمها الشاعر عام ١٣٥٢ هـ حين كان في الوفد الذي سافر الى الرياض لمبايعة الملك سعود بولاية العهد وهي التي مطلعها ..

اجل هذه نجد فهل شاقك الرند
وهبت صباها فاستقل بك الوجد

واما الثانية فهي الرائية التي نظمها عام ١٣٥٤ هـ وهي التي مطلعها :

هنيئا بك العيد الذي أنت ناظره
وفي الله تقواه وفيك بشائره

وشاعر كالغزاوي من وفرة انتاجه لايكفي في دراسة مذهبه الشعري النظر الى قصيدتين او ثلاث او نحوها وقد يقول المؤلف ان مذهب الغزاوي لم يخرج عما ورد في هاتين القصيدتين وهذا قول ردده عن شعر الغزاوي كثيرون وربما كان له مايبرره في شعر المديح بالذات ، أو بعبارة ادق من جل شعر المديح ولكني على أي حال لا أميل الى الحكم على الشاعر بنذر يسير من انتاجه .. على ان المؤلف قد رفع شاعرنا الغزاوي من رائيته الى الى مرتبة المتنبيء والبحتري و هذه مسألة فيها نظر .

وفي ص ١٣٣ ينتقل من الحديث عن الغزاوي الى الحديث عن فؤاد شاكر ، وأول مايتناوله من انتاجه الجم قصيدته (حولية نجد) التي نظمها في عام ١٣٦٠هـ في مدح الملك عبد العزيز رحمه الله .

أ - ولكون المؤلف قد عاب على الشاعر تكرار (عن) في جملة من ابيات صدر القصيدة ولكوننا لانوافقه في ذلك نورد هذ الابيات متبعة بقوله ثم نردف ذلك برأينا في قول فؤاد شاكر ..

اجل هذه نجد فسائل ربي نجد
عن العرب الامجاد من سالف العهد
عن الدين والاخلاق والعزم والحجى
عن الشعر والتاريخ والعزم والمجد
عن الخيل والاصباح والسيف والقنا
عن الرأي والاقدام والحزم والجد
عن الليل والبيداء والظعن والنوى
عن الدجن والصحراء والغيث والرعد
عن الصافنات الجرد كالريح ضمر
عن النوق والاخلاق والعدو والوجد
بلاد هي التاريخ ابيض ناصع
زها مجدها كالحسن في صفحة الخد
فقل للصبا اذهب بنفح عبيرها
الا يا صبا نجد متى هجت من نجد

قال المؤلف : هذا هو الجزء الاول من حولية نجد واحسب شاعرنا بهذا العرض الموسع الذي كان يقصد منه الاشادة بنجد وتاريخا لم يزد على رصف الكلمات بعد حرف الجر (عن) وكان يكفيه من كل ذلك قوله : (بلاد هي التاريخ الخ ..) فقابل من اللمحات الشعرية الصادقة القوية كان يقوم مقام هذه النغمات النظمية التي لاتضيف شيئا سوى زيادة عدد الابيات ..

ولو ان الاستاذ عبد الرحيم تأمل وتحسس ماتوحي به هذه النغمات كما يقول لتبين انها ضرورة ملحة في مثل هذا القول وانها تكثف الايحاء في الابيات وتجدد اسلوب القول الى ماتكسبه من موسيقى لاتخفى على كل ذى ذوق سليم ثم يأخذ تضمين الشاعر شطرا من قصيدة ابن الدومنية على انه انباء عن مذهبه في القول ودليل عليه ويجدها المؤلف فرصة لايراد جملة من ابيات قصيدة ابن الدومنية ، وما كان اغناه عن ذلك .

ونصل الى الباب الرابع الذي هولب لباب هذا البحث ويشغل سبعين صفحة من الكتاب .. يبدؤها المؤلف بعجالة عجلي عن الاستعداد الذاتي لدى ادباء الطليعة في الحجاز لنخلص منها الى مثلها من حيث الاهمال والسرعة في الاختيار .

وهي الاشارة الى اثر الثقافات الواردة .. لكنه يرجع كل اجادة وابداع لدى ادباء الطليعة الى الاخذ من تلك الثقافات وهذه قضية خطيرة اذ انها تفضي الى الحكم على اعمال اولئك الرواد بانها تقليد ومحاكاة ، وان تحقق هذا في البعض فانه يجب الا يكون ذلك قضية خطيرة اذ انها تفضي الى الحكم على اعمال اولئك الرواد بانها تقليد ومحاكاة ، وان تحقق هذا في البعض فانه يجب الا يكون ذلك قضية مسلمة لدى الجميع ..

ان التجديد والابتكار والاقتراع امر مشترك بين هؤلاء واولئك والذي جعل اولئك يبتكرون ويجددون لايمكن ان يكون محظورا على هؤلاء الا عن طريق تقليد اولئك .

لماذا نسلب بيئتنا ومجتمعنا القدرة على الابتكار والتجديد ؟ ولماذا نرتاح دائما للتبعية ؟ انه لمنطق عجيب ، لكنه ليس بجديد وليس الذنب فيه ذنب المؤلف لكن كنا نأمل من ان يفند هذه الاقوال ويظهر حقيقة الامر .. لكنه لم يزد على ان كان تابعا لمن حكى اراءهم واقوالهم ..

وكنت اخاله أكثر شجاعة وانفذ بصيرة وابعد مدى .. ثم يتحدث عن الحركة النقدية فيورد لها من النماذج ما يؤيد ما ذهب اليه حين تحدث عن الثقافة الوافدة الا قليل لا تعطي الا صورة باهتة للاراء النقدية اذ ذاك ..

ثم عقد عنوانا سماه (الدعوة الى التجديد) ولكنه قصر الحديث في هذا الموضوع على بعض من آثار الاستاذ محمد حسن عواد وبخاصة كتاب « خواطر مصرحة » ، وكتاب « تأملات في الادب والحياة » ونحن لا نشك في جدوى هذين الكتابين في مطلع نهضتنا لكن الاستاذ عبد الرحيم ابو بكر ومعه آخرون اعطوا هذين الكتابين اكثر من حقهما فاما خواطر مصرحة فكانت لنا معه وقفة سبقت ، واما تأملات في الادب والحياة فان لنا معه شأن ان شاء الله ولكن اين دعوة التجديد عند غير العواد ؟ ولماذا وقف المؤلف هذه الفقرة من هذا الباب على هذين الكتابين ؟ لا نريد ان نجيب على ذلك لعلمنا ان الجواب معلوم لدى كل مثقف ولان المسألة من الوضوح بحيث لا تحتمل الوقوف عندها ..

ثم يأتي دور (بواكير الرواد) كما يقول الاستاذ عبد الرحيم ابو بكر .. واول ما يتحدث عنه الكاتب هو المرحوم الشيخ محمد سرور الصبان ولا يقدم لنا من آثاره الا بعض من ابيات قصيدته (ياليل) و (يابدر) ولست ادري لماذا انصب اهتمام الكاتب على بعض من ابيات هاتين القصدتين اللتين ابلاهما التكرار وانهكتهما الاعادة حتى اعتراهما ما يشبه الابتذال من كثرة تعاور اقلام الكاتبين لهم وكأن الصبان لم ينظم ماهو جدير بالدراسة سوى هاتين القصيدتين حتى صارتا في عالم ادبنا (كقام زيد) و (ضرب زيد عمرو) في عالم النحويين .

ثم انتقل الى نماذج من شعر شعراء ثلاثة هم محمد حسن عواد وعمر عرب وعبد الوهاب اش ، وحديثه عن تلك النماذج ينم عن اهتمام كبير بالتجديد في الشكل وكانه هو كل شيء بل كأن الشكل عنده ينحصر في الخروج على نظام القصيدة العربية وبخاصة وحدة البحر والقافية وهذه مسألة خاضت فيها الاقلام كثيرا حتى اصبح كل شيء فيها مكرورا من هنا لا اريد ان اعلق على مثل هذا الا بكلمة واحدة هي ان للشعر كيانا يميزه عن النثر الفني ، وعلى كل باحث ان يتبين موضع قلمه من هذا وان يعلم ان التجديد لا يكون بهدم الصالح القوي واستبداله بالرث الهزيل .

ولقد اورد الاستاذ عبد الرحيم في هذه الفقرة نموذجين للعواد وان كان الثاني يعارض الاول منهما وكان اجدى لقلم عبد الرحيم ان يمد الحديث عن هاتين القصيدتين وان يوازن بينهما موازنة تظهر ما بين النصين من لون شاسع يتبينه الباحث في اللفظ والتركيب وفي الصور والاخيلة والاساليب وفي جوانب من المضمون .

ومع اني لا ارتاح كثيرا لبعض سماتهما الا اني اعد القارىء بتناولهما بالدراسة حينما اشرع فيما رسمته من دراسات ..

وتحت عنوان (ظاهرة التأثر) يعود الاستاذ عبد الرحيم الى ان يرجع كل مظاهر التجديد في الادب الحجازي الى تأثره ومحاكاته وتقليده لادب ادباء المهجر ومصر وهذه مسألة تحدثنا عنها سلفا غير اننا نودان نشير هنا الى ان في حديثه عن التأثر والتأثير لا يوازن ويقارن بين النصوص الابعجالات اجودها قوله في الموازنة بين قصيدتين لعلي محمود طه واحمد عبد الغفور عطار (هكذا تحدث العطار في مطولته عن (ميلاد شاعر) ويخيل الي انه كان في حديثه متأثرا بالافكار العامة التي اشتملت عليها قصيدة على محمود طه (ميلاد شاعر) واذا عن لي ان ابدي بعض الملاحظات فانني اجد ان قصيدة علي محمود طه كانت تتسم بالتخطيط والتصميم والتنظيم والاختيار في رسم الصور والمشاهد وقد كان السحرتي الناقد المصري يقول : (ان شعر علي محمود طه يطبع اكثره الكد ، وتتجلى فيه اعمال الاناة والروية) ، بينما كانت قصيدة العطار اقل مستوى في هذه الناحية وظهر تكديس الصور وتجميعها ، ويظهر من قصيدة على محمود طه ٢ — ٧٧

تجسيد للطبيعة وتعاطف معها اقوى بكثير مما يجده القارىء لقصيدة « المكار » كما ان الخيال في قصيدة « الملاح التائه » كانت آفاقه أوسع وارحب ، وتوليد المعاني عند العطار اظهر في مقابل ذلك ، ثم ان قصيدة علي محمود طه كانت تسير في الشكل على نظام المقطوعات بينما جاءت مطولة العطار مكونة من ثنائيات يستقل كل بيتين منها بقافية واحدة ، وبجانب هذا كله نلاحظ عند العطار محاولة الاستقلال في الاداء والتعبير بالرغم من التأثر بالافكار العامة التي اشتملت عليها مطولة الملاح التائه ، ومن هنا كان تأثير العطار فيما يخيل الي تأثرا واعيا جيدا يشارك في الاتجاه الفني الجديد ، ولكنه يستقل في الصياغة والاداء وينحاز الى المضامين الجديدة ، واصحابها ، ولكن دون الفناء في الشخصيات الرائدة ذات السمعة الفنية الشهيرة ، الذائعة ، وهذا قول حسن وان كان غير كاف الى ما فيه من افتعال لبعض التعبيرات والالفاظ واكراهها على مكانها من القول كمثل قوله « التخطيط والتعميم والتنظيم والاختيار » فلعل الاستاذ كان يفكر في بناء سكن جديد .

وتحت عنوان « مظاهر التجديد في الاطار الموسيقى» ذكر ماينم عن قصر الاطار الموسيقي في الشعر على الوزن والقافية وفيه بدأ الحديث عن الشعر المرسل أولا ثم تنوع القافية وفي هذا اورد نصوصا لبعض الرواد جيدة وان خرج اصحابها فيها على وحدة القافية في الفنون التقليدية كالمدح والرثاء ونحوها ، ولست ادري كيف اخرج الفزل ونحوه من دائرة الفنون التقليدية ، ان مانعرفة في ادبنا العربي ان الفزل والوصف ونحوهما من الفنون التقليدية عند العرب فلعله كان يريد ان يقول (شعر المناسبات) كما يعبر بعضهم عن مثل تلك الاغراض وهي تسمية لا ارتاح لها لان الشعر في نظري كله مناسبات ، فانفعال الشاعر بالمنظر الجميل أو الحدث مناسبة توحي له بما يقول :

أما حديثه عن الموشحات الحديثة فلا جديد فيه الا انه اعتراف بانه اثر من آثار الموشحات الاندلسية .

ويدلف الى (الشعر الجديد الحر) كما يسميه فيعرض للحديث عن اسبق نص في هذا الميدان وادعى ان الشاعر محمد حسن عواد زعم انه نظم شعرا حرا قبل نازك الملائكة والسياب بسبعة وعشرين عاما .

ولقد حدثني بعض الفضلاء ان الاستاذ محمد حسن عواد قد انكر هذا الزعم والله اعلم ، ولكن اهم مايعنينا هنا هو قوله : (لان الشعر الحديث في الحجاز ظل شعرا اقليميا في اكثر احواله لولا تعرض قلة من الادباء العرب الذين عرضوا للكتابة عن بعض شعرائه بمناسبة اصدار ديوان أو ما الى ذلك من المناسبات وذلك حين عرض لازورار الاقلام العربية عن الادب الحجازي ..

والاقليمية في الادب لها مفهوم غير هذا الذي يقوله ابو بكر ، وهو كون الشعر يظل يدور في اطار محلي وما اظنه يعني هذا ، بل ان صريح قوله ينفيه ولذا كان عليه ان يضع بدل الاقليمية جهل (غير السعوديين) أو عدم الذيوع والانتشار) .

والاستاذ محمد حسن عواد رائد من رواد الحركة الادبية عندنا لايزيد في وزنه أو ينقص ان ثبتت له هذه الاسبقية أو لم تثبت ، وان كنت ارتاح الى ان لايبوح بهذا الاثم ، ويبدو ان الاستاذ عبد الرحيم ابو بكر لايفرق بين المحافظين والمقلدين فهو يقول في حديثه عن

(ملامح التجديد في المضمون) (فاننا نحاول هنا ان نرصد ظاهرة ان شعراء تيار التأثر والتجديد تختلف عن مذهب ذلك التيار المقلد المحافظ في المذهب الشعري وفنون القول) ومن المعلوم ان المحافظين عند اهل هذا الفن غير المقلدين فمثلا الشاعر ابراهيم الاسكوبي معدود في زمرة المقلدين بينما يعد حمزة شحاته واحمد عبد الغفور عطار وعبد الوهاب آش بين المحافظين ، ولكي يتبين القارىء مانرمي اليه نقول ان اهم مايميز المقلدين انهم اتكئوا على الماضي في كل شيء . أما المحافظون فانهم حافظوا على الكيان العام للشعر في حين انهم جددوا المضامين والافكار والمعاني وطرق الابداع والتصوير الفني ولم يجنحوا الى اتباع طريق الهدم لكل ماهو صالح ونعني بالصالح هنا ما يكفل للشعر تميزه واستقلاله في عالم الفنون الادبية ، وهذه امور قد تجنح النفس الى مد النفس فيها لولا ان موضوعنا عرض كتاب .

وتختلط المفاهيم عند المؤلف فيعيب المناسبات عند شاعر ويجعلها سمة فضيلة وتجديد عند آخر (١) فالمدح اذا جاء على لسان فؤاد شاكر فهو منقصة لكن حين يرد على لسان العواد فهو مدحة ، فسبحان من يغير ولا يتغير !! ان الفن الشعري هوهو .. وان في مدائح فؤاد شاكر ما يماثل زائية العواد أو يسمو فوقها ، ولكنها شهوة التفضيل ولا اريد ان أقول انه الجبن امام الحي أو الانحياز له ، واني لاتمنى ان تكون زلة قلم جاءت سهوا ، فذلك اهون ، (وبعض الشر اهون من بعض) .

اذا قلت لك ايها القاريء العزيز ان الاحكام الادبية عند عبد الرحيم تخضع لموازين وضعها هو بنفسه لنفسه فاني لا اقول هذا تحاملا أو تجنيا اذ ان مابيني وبينه من الروابط ربما انتظمتنا في نظام الاصدقاء لكن البحث العلمي كما قلت واكدت في اكثر من موضع يجب ان يكون بعيدا عن كل ماعدا الحقيقة ، وشاهد اضطراب المعايير الادبية عنده تجده مدسوسا في كتابه من ذلك على سبيل المثال حديثه عن قصيدة لحسين قاضي أوردها في ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ وهي من الشعر المرسل قال عنها عبد الرحيم في ص ٢٣٨ : قد يبدو هذا النص من حيث مستواه الفني اقرب الى التعبير النثري لولا هذه الموسيقى التي تنظمه اقرا تلك القصيدة ، ثم اقرأ نصين لشاعرين أخرين أوردهما في ص ٢١٨ ، ص ٢٣٢ أو غيرهما من النصوص شبه النثرية التي فضلها ووازن وقارن ثم احكم ، ويقيني انك قائل باكثر مما قلت وليس بالمهم ان اقول وتقول ، ولكن المهم اننا لانريد لادب امتنا ان يكون العوبة تصرفها الميول والاهواء .

ويختم المؤلف مباحث كتابه عن شعر (الصبابة والهوى) ويعني به الغزل لكنه يقول في ختام الحديث (وهكذا استطاع بعض الشعراء من اصحاب تيار التجديد في الحجاز ان ينتقلوا بشعر الحب والوجدان من بيئتهم الادبية من مذهب التقليد والمحافظة على التراكيب الموروثة الى شعر يفيض بصدق العاطفة وحرارتها في لغة عصرية تنم عن اخلاص في الفن وجد في اداء الرسالة ، واذا كانت بعض ملامح التأثر قد ظهرت في بعض نماذج ذلك الانتاج فليس ذلك بالعيب لانه يدل على حيوية واستيعاب لثقافة العصر . وهل خلا ادب أي اقليم من تأثيرات رواسب الاطار الثقافي ، عربيا كان أم اجنبيا ،) ما الذي يعنيه (بالتراكيب الموروثة) وهل الشعر في يوم ما مهما بلغ ضعفه تراكيب موروثة ؟

ثم انه دلل في هذا بصراحة على ان المحافظة عنده مرادفة للتقليد وهذا يؤكد ما اشرنا اليه سلفا من انه لم يتبين الفرق بين المحافظة والتقليد ثم يختتم هذه العبارة التي كانت ختام كتابه بالتأكيد على ان الشعر الحجازي كان تقليدا لشعر شعراء المهجر ومصر ، وهذه مسألة فرغنا منها سلفا ، غيران ماكنا نود ان يكون اخر عهدنا بكتاب الصديق عبد الرحيم هو تكراره لهذا المعنى الذي الح عليه في كل مباحث كتابه . ونختم وقفتنا مع الاستاذ عبد الرحيم ابو بكر في كتابه « الشعر الحديث في الحجاز » بالاشارة الى بعض الملحوظات العابرة التي لاتحتمل الوقوف معها فمن ذلك : —

— ان الاخطاء التي يغلب على الظن انها تطبيع كثيرة في كتابه ، منها ما ذكر في فهرس التطبيع والكثير منها لم يذكر .

— وهو يستخدم حينا التاريخ الهجري وحينا اخر يستخدم التاريخ الميلادي ولو انه وحد الامر بالجمع بين الاثنين أو باعتماد احدهما لكان اجمل .

— وفي كتابه بعض الالفاظ التي أولى به ان يستخدم بدلا منها سواها كمثل كلمة « عقلانية » في ص ٢٣١ .

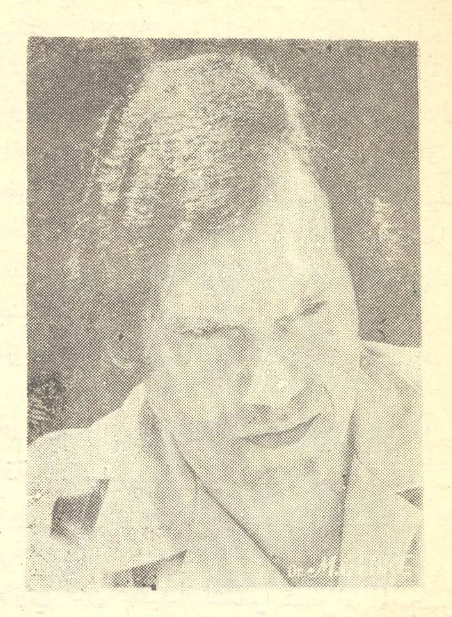
ومهما يكن من امر فان هذا الكتاب على مافيه من هناة هينات قد سد ثغرة في ادبنا الحديث واضاف الى مصادر البحث في ادب بلادنا مصدرا جيدا لا يستغني عنه الدارس ..

عن « ملحق الجزيرة الادبي »

العلاقة الجدلية

بين الوحي والابداع في فكر مصطفى طلاس

بقلم : محمد جبر



د. محمد جبر

الخيال يبقى وهم ان لم يتحول الى كلمة مسطورة أو لوحة مرسومة ، والكلمة لامعنى لها ان لم تتحول الى فعل وصدق .. والصدق هو مبدع الفن الاصيل الخالد .. ودقائق العظمة لكل عباقرة البشرية تكمن في العمل الاصيل الذي يعقد صلة التواشج بين طرفي المعادلة .. الصدق من جانب والاصرار والعطاء النظيف والخصب من جانب آخر .. فمادة الصدق تدل على قوة البصيرة ووضوح الرؤيا في ترجمتها عمليا ، وقد سمى العرب الحق في القول صدقا لقوة الحق في مضمونه وجوهره ، وعمقه في مدلوله .. وهو على نقيض مع الكذب بشتى صنوفه وضروبه ومذاقاته . وتأتي اللغة لتحسم الامر في مجازها : رجل صدق صادق الحملة .. وذو صدق في القتال .. ومعناه الاعم والاشمل تطابق الظاهر والباطن والقرآن الكريم في بلاغته يضفي على مادة الصدق جلالا وجمالا حيث يطلقها على كل عمل طيب ، فنجد قوله تعالى عز وجل : « وقل ربي ادخلني مدخل صدق ،وا خرجني مخرج صدق » . من هنا .. من نقطة المحور التي تجسد مصدر الصدق الفني والحياتي ندخل عالم مصطفى طلاس الباحث والشاعر والاديب لندرك الى أي مدى وصل في تكريس عنصري الصدق والاصالة من خلال نتاجه الفكري الغزير الجيد .

لقد عاش مصطفى طلاس سنينه الطويلة ، وبدأ يكتب قبل أن يتم العشرين من العمر .. ولم يتوقف عن الكتابة الى يومنا هذا . ففي رحلته الحياتية في النتاج الادبي المتصل قد مارس كل الفنون وضروبها الهامة الشعر والقصة والنقد التاريخي السياسي والاجتماعي .. والتحليل العلمي .. وهو ليس اديبا فحسب بل — مع كل هذا — مربيا ومعلما ومسؤولا يحمل في اعماقه وحسه ووجدانه هم بلاده وشعبه وامته بكل امانة وشرف .. يعتبر هذا الانسان — دون تطبيل — مدرسة لجيل يبحث عن وجهه الضائع في خضم الصراعات الاجتماعية ، والتيارات السياسية والفكرية .. يطرح افكاره بجرأة متناهية .. ونتاجه اصبح نظرية في التربية وعلم الاخلاق .. وبجدارة يعتبر رجل امة ومنار وطنية قل مثيله .. شارك في الاحداث الهامة التي مرت بها بلاده في تلك الحقبة الطويلة من عام ٩٤٥ حتى يومنا هذا .. شرد وتألم .. سجن وتعذب ، دفع ضريبة مواقفه حياته وراحته .. رجل ودع مرافىء الراحة منذ نعومة اظافره .. حمل صليب مبدئه على كتفه منذ البدء .. مناضلا اصيلا محبا ودودا .. وفيا مخلصا ... لانسانيته .. انه انسان بالمعنى النموذجي .. اعتبره الكثيرون من الناس مفكرا كبيرا .. ومعلما فذا لان نظرته الى الحياة نظرة متكاملة . فكيف تطمح مثل هذه الدراسة المكثفة المتواضعة جدا لان تكون دراسة انسان بلغت حياته من السعة والخصوبة وتعدد الجوانب والمناقب هذا المبلغ من الرقي في المشاعر والاحساس والفكر الرصين الحصيف ؟.. انها تحاول ان تعرض على قراء العربية هذا الاديب بهمسة عابرة في ذكر ديوانه الكبير الذي ضم عيون الشعر العربي وأروع قصائد قيلت في تراثنا الفكري الى حد بعيد . وهذا الديوان « قصيدة وشاعر » يعتبر عمل ضخم الانجاز .. جميل الاخراج في حلة ولا أروع .. واعتمدت في هذه الهمسة ان تكون سيرة افكاره لاسيرة احداث لانني قد وقفت طويلا من نتاج هذا الكاتب الطليعي في كتابي مصطفى طلاس مفكر الانسانية والحب والثورة والذي سيصدر قريبا — ودرست جوانبه ومناقبه وسجاياه على قدر الامكان دراسة تحليلة اكاديمية .. والهدف من ذلك ان يخرج

القارىء الكريم بصورة مكتملة ـ على صغرها ـ للشاعر والاديب الانسان . والهدف هوان يحب القارىء هذه الصورة ويتطلع الى اكتمال خطوطها والوانها . ولئن اصابت هذه الهمسة الصغيرة ذلك الهدف الكبير ـ ١ ـ فهي اذن جديرة بأن تحمل اسم شاعر الفكر الانساني والثورة الذي وسع قلبه العالم كله .

مصطفى طلاس هو كاتب طليعي مغمور من حيث التقييم وليس من حيث النتاج والمكانة على امتداد الساحة الادبية في الوطن العربي الكبير .. ولست ادري لماذا لم ينل حقه من النقاد والدارسين في وطننا العربي .. هل لانه رجل بزة عسكرية ؟.. واذا كان كذلك فلا يعني هذا أن نهمل نتاجه الى هذا الشكل المخزي لنا من دراسته وتحليله وتقييمه كاثار ادبي ومفكري .. ولكن هل ننسى ان اصحاب البزات العسكرية قد اعطوا فأبدعوا ..وخطوا بالقلم فأخلدوا.. مثلا ان اللواء العراقي « محمود شبت الخطاب » يعتبر علما من اعلام دارسي التاريخ وقد اغنى المكتبة العربية في بحوثه وكتاباته .. وبالمثل الجنرال الباكستاني « أ . أ . أكرم » والكاتب المعروف العقيد « محمد الشاغر » وغيرهم الكثير الكثير ... ولكن بقي علي ان اقول ان هذا التعتيم الاعلامي على نتاج هذا الكاتب الطليعي نوع من التعسف الذي لايقبله منطق الفكر . او الذوق الادبي . ان الفكر الملتزم لاينتظر كاتبا من طبقة معينة .. وانما ينظر لرجل الفكر بغض النظر عن كل اعتبار ، لان الكلمة الطيبة هي ابنة الفكر الخالص .. وان الانتماء لايقلل من شأن الفكر الصادق الحر .. وبنفس الوقت لايزيد الانتماء من الاصالة ولا ينقص من المكانة . لذلك يجب ان نحاول جادين مجتهدين ايفاء بعض حق هؤلاء المفكرين الجهابذة لمالهم علينا من حق بغض النظر عن كونهم عسكريين او غير عسكريين .. من طبقة دنيا أو طبقة عليا .. ألم يكن تولستوي اقطاعيا شكلا وثوريا اشتراكيا ضمنا .. وكذا الحال مع اللورد بيرون ألم يستشهد في اليونان دفاعا عن شعب مقهور غير شعبه ؟ وغيرهم الكثيرين .. فهل ننكر الحق لهؤلاء الجهابذة بأنهم منارة انسانية للاجيال. وبرأيي ان الذي يتنكر لكل فكر اصيل هو جاحد لشرف الكلمة .. وقدسية الحرف ـ وكل جاحد ليس منا ـ ولم اقل هذا من قبيل المجاملة أو التبجح : آن لنا أن نكون مع كل نتاج جيد أقرب الى الصدق .. والاكثر اخلاقية وموضوعية ، وأن ما أراه على الساحة الادبية هو الذي دفعني وأثار اهتمامي وخاصة بعد ان قرأت اعمال هذا الكاتب الطليعي .. الذي هزني هو اجحادنا له نحن اصحاب الكلمة في دنيا الحرف المسطور ، ومع الاسف الشديد انني كل يوم اصطدم بدراسة تقوم حولها ضجة اعلامية ثقافية ودعائية لاناس ليس لهم شأن في عالم الكلمة يعتبر شيئا من النتاج على صعيد الادب .. فما هو السر في ذلك ؟.. اترك الرد للذين يعلمون فلسفة الكواليس !!.. والتاريخ والزمان لهما القول الفصل دائما . وتلك هي الطامة الكبرى .. ولكنني اقول هذا لكل ملتزم يتمتع بضمير الحرف ويهمه شرف الكلمة وقدسيتها . وانني لست من المغالين للكاتب مصطفى طلاس كونه شخصية عسكرية وسياسية هامة .. بل انني وبكل تواضع ـ العشق الحقيقي للادب ـ مايهمني هو فكر مصطفى طلاس كباحث وباعث لتاريخ امتنا المجيدة . ومن هنا أبدأ وعذري شديد على هذه المقدمة التي طالت على القارىء ولكنني ارتأيتها من ضروريات المدخل لهذه الدراسة المتواضعة بحق هذا الكاتب الطليعي الممتاز .

« ارجو أن اكون قد قدمت قطرة صافية من بحر لغتنا العصماء .. ونفحة شذية من نفحات شعرها المبين .. الى ذوي الحس المرهف من قرائها ، ممن لبلاغة الكلمة والتعبير وروعة الفكر والبيان ، اثر في عقولهم ونفوسهم ...(٢)

ان مانراه في ديوان « قصيدة وشاعر » اكثر من قطرة صافية ، وللامانة لقد كان هذا المؤلف والباحث نحله تطوف الرياض والحقول وتحط فوق كل زهرة بهيجة تمتص الرحيق ، ومن ثم تهضمه بحس بالغ الذوق والشفافية .. وتفرزه شفاء للناس وهكذا كان هذا الانسان في ديوانه ، قصيدة وشاعر ، لذا نراه يصرح برؤيته الواضحة في مقدمة ديوانه : « ورسخ في اعماقي اليقين بأن الشعر هو مفتاح الشخصية العربية ومحكها الاول وان العربي عندما يحاول ان يكون شاعرا فكأنما يصر على ان يحقق ذاته ، ويتصل بروح امته العريقة ، ولقد كان ذلك المفكر ملتصقا بامته روحا وجسدا .. حسا ووجدانا بدءا من كتابه « الرسول العربي وفن الحرب » وانتهاء بديوانه « قصيدة وشاعر » مرورا بـ « سيف الله خالد ابن الوليد » لقد شرحت فيما تقدم من ظروف « طلاس » في علاقاته وصفات

الحياة العامة في ايامه ومؤلفاته (٣) . وشعره من الشعر المتحرك بالحياة وطبيعة الاشياء . حياته هو وحياة الناس المحدقين به وحياة الانظمة التي سادت مجتمعه منذ نشأته حتى الآن . وحياة الطبيعة التي تفيض اسرارها على لسانه وجدانات بعضها هزج وطرب ، وبعضها ناقم كئيب . ماذا تريد صديقي القارىء ؟...

لست في حاجة الى اثبات حفظي لهذه الرموز من مذاهب الادب ونظرياته (٤) ولا الى اعلان معرفتي بتفاصيلها ــ وخاصة انا ضد عرض العضلات الثقافية على مسرح الكلمة .. وبالمقابل لا أكتب عن أي أديب أو مفكر لأنال الحظوة عند فلان أو علان .. بل انما عندما اكتب بوازع من ضمير .. وايعاز من ايماني بقدسية العمل النظيف .

ثم لايزيد نتاج « طلاس » شيئا اذا مانسبناه الى مذهب معين أو طبقة معينة ، كما لاينقصه شيئا اذا نسبته الى احد هذه المذاهب ، ف « مصطفى طلاس » حين ارسل قريحته شعرا أو نثرا لم يكن يفكر ببذة عسكرية .. أو بمذهب من المذاهب التي يفسد التفكير بها صلته بمنابع الحقيقة الخالدة ، ويشوه تعابيره عنها . فتذوقه انت كما ارسله هو ببساطة لاتتكلف التعقيد الذي يفصل بينك وبين حس الحياة الملحن بنتاجه الذي يعرض لك همومك واشواقك ، ومجد امتك ــ وكبواتها بالفاظ واهنة .. بل يطرح تراث أمته تاريخا ونثرا قصصيا وشعرا لاتكلف فيه ولاتعقيد ــ انه السهل الممتنع ــ بل جدولا رقراقا بمادته العذبة القراح . في رأيي ان الفن كما يفسده التكلف ، واصطناع وسائل العلم والاسلوب فيه اصطناعا مقصودا ، كذلك يفسد فهمه وضعه على مائدة التشريح . قد نصل من تشريحه الى استنباط قاعدة ، أو ايضاح درس ، ولكننا نضحي اثناء عملية التشريح بجماله ، ونتعرض منه لمشاهد دموية تعافها النفس . على أني لست من عشاق العفوية في انشاء أي فن ، ولا في فهمه ، فالعفوية بدائية لاتسمح بتكامل الفن ، ولاتتيح فهمه ، تخذلها هناك ادوات الابداع مضمونا وشكلا ، وتخذلها هنا وسائل الاجتلاء والتقويم ، وكلما نقصت الشروط في الميدانين جميعا تمت شروط الفهاهة في احداهما .. والغموض في ثانيهما .. نقص يقصر عن العطاء في ميدان ، وتنشل حاسة التقويم في القارىء ، وهكذا تنعدم فائدة التبادل فعلا وانفعالا آخر الامر . بل أنا ممن يرون معرفة المجاز خيرا من قول المجاز ، ولكن على ان تجند هذه المعرفة للعمل ، فلا قدسية لعلم متآله أو مخزون . من هذا أرى حتما على كل من الاديب وقارئه أن يتجهزا بما يذلل لكل منهما صعوبات الطريق ، فاذا أغنى الاديب فكره بثروة قيمة من المعلومات والاساليب ، واشبع فكره وذوقه بمواد غذائية من ثقافة مستوفاة لعناصر صحة الفهم والادراك ، اهمل هذا كله حين العمل الفني ، واعتمد موهبته وحدها في الصنع ، فانها تبدع آنذاك بطبيعة غناها ونعيمها اعمالا غنية اصيلة .

وكذلك نقول في القارىء : جهزه بادوات الفهم واتركه ينعم من داخله بما يسمع أو يشاهد أو يقرأ من اعمال الفن . انه يتصل بها آنذاك مباشرة .. ويحيا مع مبدعيها ومنتجيها بنفسه ، ولن تعوض عليه هذه اللذة ، ولا على الفن قوة التأثير بشرح وتعليم مهما أوتيت من عظمة الحظ فيها .

ونحن من نتاج مصطفى طلاس الادبي مطمئنون في احد شقي هذه المشكلة . فطلاس اديب ومفكر مجهز بأفضل مايتجهز به كاتب وشاعر في مرحلته ، فهو غني الفكر بملكة لسانية تنقاد لها العبر دون جهد ، وبمثل سهولة العفوية ، وهو من هذا وذاك قادر ــ في توفر وطبع ــ على الربط بين ذاته في عالمها الداخلي المشحون باسرار المعرفة ، وبين العالم الخارجي من حياة المجتمع البشري ومظاهر الطبيعة ، ربطا يصوغ له فنا من القول يلمح منه بريق الاحجار الكريمة ، الذي يسمى عادة (العبقرية) . هذه مرحلة من المشكلة كفانا عنها القول فيها ، بقي النصف الثاني من المشكلة وهو أهم النصفين . هل اشرح لك نتاجه المؤلف من عشرين عملا ضخما متعدد الالوان والجوانب (قصة وبحوث تاريخية .. ودراسة عسكرية .. وشعرية .. ووثائقية قومية ... الخ) كما يفعل استاذ التشريح بالارانب ؟.. أو احلله كما يفعل معلم الكيمياء بالغاز ؟.. لا . وان هذا يتلف عليك كمية من اللذة والنشوة الروحية والحسية .. لذة الالتصاق بروح هذا المفكر الطليعي ، وجوهر الفن ، ولكني ساحاول أن اضع في متناولك بعض الادوات كي تعمل بها انت على تذوق المضمون الفني . مذهب مصطفى طلاس في كل نتاجه مذهب واقعي واضح السمات . ولن ادخلك في ايراد ومصرف ــ كما يقال في اللغة المطروحة ــ من تنزيل هذا المذهب في منزلة من المذاهب الادبية ، ولن آخذ بيدك الى متاهات

فلسفية لم تحدد مواقف اصحابها حتى الآن من المجهول .. – مجهول النفس على الاقل – ولكني على الاجمال اذكرك ، أو اذكر لك ان مرجع الخلاف بين المذاهب الادبية المتصارعة الان انما هو ماسميه الفلاسفة « نظرية المعرفة » والصراع الاساسي البادىء من هذه النظرية ينشب بين المذاهب المثالية والميتافزيقية وبين المذاهب العادية ، لا على هذا الصعيد فقط ، بل على كل صعيد . وجوهر الخلاف في هذه النظرية الاساسي يدور حول مبدأ التفكير .. مبدأ الوجود أهو منبثق من داخل النفس ، من العقل واجهزة الحس ، منفصلة عن العالم الخارجي الخاضع « للمنطق » ؟ .. ام هو منبثق من العالم الخارجي (المجتمع والطبيعة والزمان والمكان) منفعل به متفاعل معه تفاعلا يخفف من قسوته بالوعي والنشاط ، ويزيد في عنفه بالجهل والخمول ! .. (٤) وبعبارة اخرى : الخلاف في نقطة السير بالتفكير في الحياة والكون ، فالمثاليون والميتافيزقيون يبدأون تبعا لاستاذهم القديم «افلاطون» من الذهن والتصور ، فيخططون عالمهم في الخيال مفترضين ان النماذج والمثل الخارجية المحسوسة فروع لاصول معنوية قائمة في الوجود المسحور اللامحسوس ، اما « الوحدة » واما الموجودات غير المشمولة النظام الخلقي من اجتماعية وطبيعية ، فليس لشيء منها في نظرهم حساب . وانما الحساب كله لتلك الاحلام الذهبية المنقطعة عما يجري في العالم الواقعي ، ويتناولها تقديما وتأخيرا وتنسيقا رائعا جميلا ، ثم يرشحها لتطبيق في غير دنياها . أما الماديون فبدأوا تبعا لاستاذهم القديم « ارسطو » من النقطة المعاكسة تماما ، فساروا من الخارج الى الداخل ، وخططوا عالمهم الواقع متخذين من نماذجه ومثله اصولا لفروع ترسمها الحواس في في الذهن والتصور ، والوجود عند هؤلاء : كل الوجود مترابط بوحدة عامة ، والكون منه موجود وجودا موضوعيا مستقلا عن التفكير مؤثرا به . فلا مكان في الذهن لصورة غير منعكسة عن مثال محسوس مهما بدت غريبة عن الواقع ، ثم ومامن شيء يجري على مسرح الكون ، أو ينبت في ارضه من خير أو شر .. الا وجدير بالاهتمام والدرس والمعالجة والتوجيه – بعد الاعتراف به طبعا – بعد هذه اللمحة الخاطفة اعود لاذكر مرة اخرى بأن « الواقعية » اذا وصف بها مذهب ادبي كان معنى ذلك انه من مدرسة « نظرية المعرفة » المادية . ولهذا شأن في حديث « مصطفى طلاس » يتجاوز طابعه الادبي الى طابع فكري يرفعه من درجة أدباء (الشعور) الى درجة أدباء (التفكير) وواضح ان هؤلاء اعظم قدرا في تصنيف علم الادب اولئك يقفون من سلم الاستفهام على درجة : « لماذا » ؟ وهي أولى الدرجات التي ترفع الانسان فوق الجهلة الذين تلامس حواسهم ظواهر الكون وعجائبه دون دهشة .. لانهم يرون فيما يشاهدون حقائق مستقرة وردت بصيغ نهائية لايمسها تبدل ، ولا ينالها تغيير . أما هؤلاء من ادباء التفكير فيقفون من الاستفهام على درجة (كيف) ؟ وهي درجة تفرغ من دور التعليل أو الاكتفاء به ساذجا غامضا وتبدأ بدور التحليل فتتلمس محتويات المشاهد في طبائعها وتراكيبها . واليك هذه النزعة في شعر مصطفى طلاس رغم بساطته :

قفي ياليل لاتبكي
فما اشجاك اشجاني
جرحت القلب لو تدرين
بسهم ما له ثاني

انه – كماترى – انتهى من الرومانسية .. وبدأ بنفي البكاء والدهش وبدأ يعطي التفاصيل ، لقد اجتاز مرحلة التأمل الحائر وخطا مرحلة الانفعال ، والانصهار بالظواهر والاسباب ، والعطاء منها عطاء حيا متحركا بشفافية الالم المكنون في عمقه الداخلي . ولطلاس شعر غزلي توشحه مسحة فلسفية صوفية وعذرية – في قصيدته ، صباح الورد » :

ياصباح الورد ياعذب اللمى
لؤلؤ الثغر عقيق نضدا
افتكي كالسيف في عاطفتي
لا احب السيف يوما مغمدا

افتكي .. بداية لبيت شعري ينتهي يوما مغمدا لهي روعة في التركيب مع (كالسيف) وابداع في الكناية والتشبيه امتزجت بها القوة والرقة .. الدم يذكرنا به السيف والورد والندى يذكرنا باعراس نيسان والزنابق المشرئبة الى الشمس والدفء – زنابق تعانق الدم – خشونة تعانق الرقة ... تذكرني بمحمود درويش : « عنف النسور ورقة المتفائل » وبعنترة العبسي » :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل
منى وبيض الهند تقطر من دمي

فوددت تقبيل السيوف لانها
لمعت كبارق ثغرك المتبسم

هذه القريحة ان نمت فهي تنم عن نفس شاعر متمكن ، اعماقه مقر للاشكال الجميلة والالوان الزاهية الساحرة اللب .. ان هذه الابيات تؤكد لنا أن قائلها شاعر مطبوع وملهم مبدع ... أسمعه مرة أخرى لينطلق في عالم الشعر كالصقر حدة في البصر ، وشموخ في التحليق :

اطفئي الشمع وظلي لهبا
في فؤادي ، ابدا متقدا

أنت كالسيف رقيق ناعم
فاتك الحد .. اذا ماجردا

نحس غناء عاطفته .. وزخم وجدانه المملوء حياة كلها اتقاد ونبض بالايمان بالحب بالانسان بالرقة والوفاء عندما يقول :

خمرتي عيناك يافاتنتي
اعتق الخمر لعينيك الفدا

اشربي نخب لقاء أول
كلما اشرق صبح ولدا

ان هذه الرقة والوفاء على العهد المتجدد كل فجر صباح يعطينا الضوء الاخضر لكي نرى حسن سجاياه.. وذخر نبله ... وثراء ابائه .. انك تقف من هذه الابيات ازاء بناء حي متماسك البنية تماسكا عضويا بوحدة لانقص في تعبيرها ولانقص في تفكيرها . ودع التصوير فأمره لايحتاج الى بيان وانه لمن الفضول تنبيهك الى شأن من شؤون الحس فأنت وانا وكل قارىء يسرح عينيه في هذه الابيات يساوينا بالانتقال مع الشاعر الى عالمه الساحر الخلاق . وكل من يتذوق الشعر يدرك معنا طاقة الابداع التي جسدت خلجات النفس الانسانية الصادقة في لحظة شفافيتها .. وهذا التركيب الذي قرأناه قبل لحظة هو آية الفن فاذا وقفنا مع الابيات بحاسة صحيحة امتد امامنا الشعور الصادق البعيد من التكلف وادركنا مدى الجمال الذي يشع منها .. كما يشع من لوحة زيتية أول الامر ، ثم انستنا براعة الموهبة اننا امام صورة ، وخيلت الينا اننا مع طلاس في الحب والحياة .. في الرؤية والاحساس ، ولا يكاد الاحساس يفور في اعماق الصور .. حتى يشدنا الى مشهد عذري صوفي المحبة ويمتد على هذا النحو حتى يمد النفس بشعلة سحرية البهجة فيها شجو الحنين .. وشوق الحب ، وصلة الانسان بالانسان . وهذا عذر لايحتاج الى بيان ، وفائدة هذا النوع من الشعر غنية عن البيان كذلك . فانه لمن الواضح ان فائدته تتعدى التاريخ المستوعب لجميع خصائصه المرحلية ، الى صقل الذوق ، وارهاف الحس ، واغناء العقل . اما الذي نريد أن ننبه عليه فالنظام الفكري الذي استخدم الوصف لماوراء الوصف من الحقائق الواضحة في الصور ، استخداما ممتلئا بصحة المعرفة ، ووضوح الرؤية والتفكير . وهناك الى جانب المذهب الادبي تقوم مشكلة (صنع) الادب أو (عمله) ، وهي مشكلة سارية في كل المدارس الادبية لافرق فيها بين واقعي وبين رمزي في اتجاه .. ولا بين حرية في اتجاه آخر . فهل الشعر ومجمل انواع الفنون من عمل « الوحي » أم هو من عمل الابداع ؟ .. سؤال تختلف المدارس الادبية في الاجابة عليه ، فبين الرومانطيقية والبرناسية والرمزية والسريالية والواقعية عصبيات تتضارب بالوحي والابداع مبدئيا ، ثم تتضارب في صميم كل من المبداين هذين مذهبيا ويبدو ان التوفيق بين هذه الاختلافات الواسعة هو في كون الادب كالفلسفة ذاتي النظرة ، لذلك كانت نظرياته كالنظريات الفلسفية لاتصلح لاتخاذها اسسا عامة كالقواعد العلمية ، لانها خاضعة لتجارب الاديب ذاته ، وقد تختلف تجارب أديب وتتناقص ، فتختلف آراؤه تبعا لذلك وتتناقص أيضا كما حدث ذلك لكثيرين ك « بول فاليري » مثلا ، ومرد هذه الخلافات الواسعة كما يبدو ، وهو نفسه يبطل حجية بعض هذه النظريات على بعض اذ تعتبر تعبيرا عن وجهة نظر شخصية تلقي ضوءا على المسألة في مجال الدرس أو الاختبار لا أكثر .

على أن ادب الصنعة والتقليد الذي يصلح من بعض الوجوه دليلا للقائلين بالابداع هذا الادب المنتج بالمران دون عاطفة ، ولا معاناة تجربة يخرج من نطاق الادب الذي يهم هذه المذاهب كلها ، فانما يعني اعلام هذه المدارس من الادب بما حدده ، وواضحة خير تحديد وايضاح قديمنا ، « حسان بن ثابت » ، حينما

عرف الشعر فقال :

وانما الشعر عقل المرء يعرضه
على البرية ان كيسا وان حمقا

وان احسن بيت أنت قائله
بيت يقال ـ اذا انشدته ـ : صدقا

انما يعني بالادب المتوهج معاناة التجربة ومعاناة الدراسة معا . والآن مامغزى « الوحي » ؟ ومامغزى الابداع ؟ اذا كانت النتائج في مساق هذه الدراسة المتواضعة جدا جدا أهم من بسط المقدمات وتفاصيل الآراء ، فاننا نرد باختصار الصراع بين هذين المبدأين الى الصراع بين (المثالية ومنها الميتافيزقية) والمادية. ففي مذهب « الوحي » يشاء التفكير الميتافيزيقي أن يروضنا على الايمان بمصدر غامض للعبقريات ، وقد شاء من قديم الزمان أن يصنف الوحي على اساس ميتافيزيقي ايضا ، فاذا « الله » جل جلاله مصدر النبوة الدينية ، واذا « الشيطان » مصدر الشعر أو العبقرية الادبية ، اما الابداع فيشيد على اساس طبيعي مادي يرى ذلك المصدر الغامض .. تلك القدرة الخارقة ، موهبة انسانية تنقاد لارادته بعد تربيتها فيصنع بها الفن متى شاء ، كما يصنع الحرفي اشياءه بادواته الخاصة . هذا اجمال للنظريتين ملخص بايضاح شديد تجنبت به غموض المصطلحات ، ورمزية لفتها التي تجمع على غير الاخصائيين . ولا يدخل في غرضي الآن أن اشرح للقارىء الصديق وجهات نظر اصحاب النظريات في المسألة ، ولكني سأصدر في ايضاحها المختصر عن التجربة اكثر مما اصدر عن النظريات ، لاكون اقرب الى قرائنا الاحباب . الحق فيما رأيت من العمل الادبي انه مزاج من الوحي والابداع معا ، فليس هو وحيا محضا ، ولا ابداعا محضا ، فالادب تركيب ذهني لحقائق محسوسة ، وليس هو صنعة يدوية .. ليس هو وترا يجس ، ولا خطا يرسم ، حتى هذه الفنون من اخواته لاتشبهه في جوهر عمله ، لذلك هو يأبى ويمتنع في كثير من الاحيان ، ولذلك هو يخالف ماتريد في شيء فكرت به ، ولكنه يريد شيئا فيكون له ما أراد ، ولا يكون ماتريد في كثير من الاحيان كذلك ، وليس الوحي شيئا غير هذا ، فهل الوحي غير حالات نفسية خاصة .. وظروف ملائمة تتيح صفاء نورانيا لولادات الافكار والخواطر سوية الخلقة ، فنية التعبير ؟.. فاذا كان الوحي هو هذه الحالات ، فانه موجود في الادب حتما ، وهو موجود زيادة على هذه الحالات بأن يأتي فيها الادب بارادته هو ، لابارادة الاديب . بارادة ذلك المصدر الغامض المنكشف من مختزنات الوعي الداخلي حين لاتكون الفكرة الحاضرة خامرة ولا مستوفاة النضج . ومع هذا فان الاديب المنقح المثقف الدارس المجرب يستطيع بعد استقرار نصه أن ينقده فيحك ويعدل كما يصنع الرسام ، بل يستطيع الاديب ان ينشىء الحالات المناسبة للقول اذا اراد ، أومست الحاجة . يستطيع أن يصطنع الحالة التي تسمى وحيا، فتستجيب له استجابة حقيقية بعد تأمل غير طويل ، أو بعد دندنة مثيرة ، بل يستطيع الاديب أن يقدم ادبا فنيا صحيحا ، فيه ذاته وعواطفه متى شاء وان هبطت درجته الجمالية بعض الهبوط . واذا لم يكن «الابداع» امراواقعافي الادب فماذانسمي هذه القدرة؟. الوحي والابداع معا امران واقعان في الادب ، بل هما متلازمان ضروريان، فالوحي دون ابداع وهم مستحيل التحقيق ، والابداع لايستغني عن الوحي في اكثر الحالات . واكاد أرى الوحي شيئا كالمعدة في الدماغ مهمته الهضم ، والابداع، شيئا كملكة التصميم وتفصيل الازياء وصب القوالب. فهما أمران يجتمعان ويتعاونان ، لانقيضان يختصمان ويتصارعان .

ونرى في نتاج مصطفى طلاس الفكري شعر او قصة أو طرح تاريخي امثلة كثيرة تؤكد تعاون الوحي والابداع على صياغة مواضيعه تعاونا يحافظ غالبا على التوازن بين الفكر والمعنى ، ولايشذ أبدا عن الشعر الذي عرفه لنا « حسان ابن ثابت ومحمود درويش » :

قصائدنا بلا طعم ..
بلا صوت ..
بلا لحن ..
واذ لم تحمل المصباح من بيت الى بيت ..
وان لم يفهم « البسطا » معانيها ..
فأولى أن نذريها ونخلد نحن للصمت ..

حلب في ١٩٨٠/١٢/٣

الدكتور : محمد جبر

ـ انظر مقالنا بين الاصالة والتقليد بمجلة آراء عربية تشرين اول ١٩٨٠ .

٢ ـ من مقدمة ديوان قصيدة وشاعر للاديب مصطفى طلاس ١٩٧٩ .

٣ ـ راجع مقالنا تراثنا العربي بمجلة الثقافة تشرين الاول ١٩٨٠ .

٤ ـ راجع مقالنا تزامل الاشياء بمجلة القافلة تشرين الثاني ١٩٨٠ .

التدوين.. والمكتبة العربية

بقلم: محمد قنديل البقلي

● مامن شك في أن العرب في جاهليتهم لم تكن ثمة التفاتة الى المكتبة ، اذ لم تكن الكتابة قد عرفت ، ولم يكن ثمة كاتبون ، ولم يكن ثمة قارئون ، وحين كتب للكتابة العربية أن تظهر أخذ عصر الكتابة يبدو في الافق ، وكان التدوين الذي سجل ما سجل مما قاله القائلون ، وأكبر الظن أن هذا التدوين الاول كان مقصورا على الحكمة تقال أو البيت من الشعر ينظم أو الحادثة ذات القيمة تسجل ، من أجل هذا لم يكن ما يحفظ من هذا المدون في الشيء الكثير ، ولم يكن للمكتبة العربية بمعناها المعروف وجود اللهم الا اذا عددنا هذا القليل المدون الذي كان يرجع اليه كلما احتيج الى نواة لتلك المكتبة العربية .

هذه الاقوال والاحداث كانت للناس بها عناية ، وهذه العناية جرتهم الى نوع من أنواع الحفاظ على هذا المدون وهذا الحفاظ اقتضى لاشك مكانا مأمونا يقوم عليه أمين يعرف ما بين يديه .

● التدوين الاسلامي :

وهكذا كانت صورة تلك المكتبة العربية الاولى الا أننا لا نملك نماذج من ذلك غير تلك النقوش على الاحجار التي تركت لنا عن عصور متقدمة .

وما أن اظل الاسلام الجزيرة العربية وطالعهم محمد صلى الله عليه وسلم بالقرآن الكريم وكانت تلك الدعوة العامة التي طوت تحت لوائها شعوب الجزيرة العربية على اختلاف قبائلها ثم طوت بعد ذلك شعوبا أخرى مختلفة ، وفي ظل تلك الدعوة السماوية أخذ التدوين يرسي خطاه ، واخذ الكاتبون يزدادون ويكثرون وأخذت الرقاع والصحف تتداول ، وكان على رأس مادون القرآن الكريم ، دون على الرقاع والصحف ، ولقد حفظت تلك الرقاع والصحف عند عائشة رضي الله عنها ، وكانت عائشة شبه الامين عليها الى ان كانت أيام عمر ثم أيام عثمان حين اجتمع المسلمون على مصحف امام .

وما نظن أن التدوين في العصر الاسلامي الاول وقف عند تدوين القرآن الكريم فحسب بل تناول معه موضوعات أخرى من الاحداث التي كانت مرجع كتاب السير فيما بعد ، وان كان الاعتماد لم يكن مقصورا على التدوين بل كان جله يرجع الى ماتعيه الملكات الحافظة، أعني الرواة والحافظين ، ولكن الذي لاشك فيه أن هذا القليل الذي دون كان مثل القليل الذي دون أيام الجاهلية ، له أمكنته التي حفظ فيها وله الامناء الذين تولوا حفظه .

● الدواوين الاموية :

تلك صورة المكتبة العربية ، كما قلت ، في نشأتها الاولى بدت في الجاهلية ضئيلة كل الضآلة واتسعت مع مجيء الدعوة الاسلامية على يد محمد صلى الله عليه وسلم شيئا فشيئا حتى اذا كانت الخلافة الاموية وكتب للاسلام أن تثبت قواعده وتتمكن أركانه وكتب

للدولة الاسلامية أن تكون دولة بمعناها الكامل لها ديوانها العام ولها دواوينها الخاصة ولها ولاياتها ولها ولاتها ولها بعد ذلك كتاب يكتبون بين الخلفاء والرعية وكتاب يكتبون لانفسهم ماتجود به قرائحهم من علم وأدب وكتاب من الخاصة يكتب بعضهم الى بعض .

نرى أن العلوم كانت في العصر الاموي لا تدون لذاتها ، انما كان يدون ما كان منها متصلا بالدين ، فكانت جهود النحويين للقرآن التماسا للدقة في ضبط معاينة ، وجهود المؤرخين لمعرفة غزوات النبي صلى الله عليه وسلم وللتفرقة بين الامم التي فتحت بحد السيف والتي دخلها العرب صلحا ، ولم يفكر المسلمون في القرن الاول في تدوين التاريخ ، انما بدأ الرواة يجمعون الاحاديث وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم فيتناقلونها لا للتاريخ بل لتفسير أحكام الدين وهؤلاء أصحاب السير . وأما تدوين التاريخ لذاته فأمر بدأه المسلمون في القرن الثاني عندما اشتد امتزاجهم بالشعوب التي دخلت في الاسلام ، وكانت هذه الشعوب تجيد القراءة والكتابة .

● **المدونون :**

وأول كتاب جامع لذلك هو كتاب ابن اسحاق المتوفى سنة ١٥١ هـ في السيرة وكتاب آخر له من المغازي وقد ضاع كتاباه ولكن ابن هشام المتوفي عام ٢١٨ هـ لخصهما في سيرته والف الواقدي وهومن موالي بني هاشم كتابين جليلين ، أحدهما في المغازي والاخر في فتوح الشام ونحا نحوه تلميذه ابن سعد المتوفى سنة ٢٣ هـ فألف كتاب الطبقات الكبير وهو لا يزال الى اليوم من أوثق المراجع التاريخية وأهمها شأنا .

وابتدأ تدوين الشعر في القرن الثاني وأشهر جامعيه أبو عمرو الشيباني المتوفى سنة ٢٠٦ هـ وقد جمع فيما يقولون شعر ثمانين قبيلة .

وكذلك كان التأليف في البلاغة وأول من الف فيها أبو عبيدة بن المثنى المتوفى سنة ٢١١ للهجرة .

واهتم العرب كذلك بالنحو فكانوا يرحلون الى القبائل التي اشتهرت بالفصاحة وأول من رحل الى البادية فيما نعرف يونس بن حبيب المتوفي سنة ١٧٣ هـ والخليل وخلف الاحمر المتوفيان في أواخر القرن الثاني وأبو يزيد الانصاري المتوفى سنة ٢١٥ هـ ثم الكسائي والنضر بن شميل فكانوا يأخذون الاعراب عن الاعراب، ومن ذلك وضعوا قواعد النحو والفوا فيه الكتب الكثيرة.

● **مكتبات خاصة وعامة :**

كان هذا التدوين وراءه مدونات الواسع واسعة ، ولم تكن تلك المدونات في جملتها ملكا خاصا بل كانت ملكا عاما أعنى تملك الدولة فيه حقا وتملك الرعية فيه حقا ، ومن حق هؤلاء أن يرجعوا اليه وكانت هذه هي الصورة الثانية للمكتبة العربية غير أنها كانت صورة على صورتها في العصرين الاولين الجاهلي والاسلامي يملك الافراد منها شيئا وتملك الدولة منها شيئا ، وكان ما يملكه الافراد هو المكتبات الخاصة وما تملكه الدولة هو المكتبات العامة .

● **المكتبة العباسية**

حتى اذا كانت أيام الدولة العباسية استقر للمكتبة العربية وضعها وأحست الدولة كما أحس الافراد معها أنه لابد من جمع مالتلك المدونات ، يجمع ما تملكه الدولة ويجمع ما ينزل عنه الافراد لتكون من هذا وذاك النواة الحقة للمكتبة العربية وكان ذلك فيما يبدو بين القرنين الثالث والرابع الهجري ، فيحدثنا ابن سينا (٣٧٠ — ٤٢٨ هـ) عن تلك المكتبة العامرة مكتبة بخاري التي كان يختلف اليها فنراه يقول : « فطالعت فهرست كتب الاوائل وطلبت ما احتجت اليه منها ورأيت من الكتب مالم يقع اسمه الى كثير من الناس وما كنت رأيته من قبل ولا رأيته من بعد ».

وبعيد ان تكون مكتبة بخاري هذه العظمة التي جمعت الكثير الذي أذهل ابن سينا وأقر انه لم يكن قد رأى من ذلك شيئا ، هذه المكتبة العظيمة التي احتشد لها الحشد الكثير من الكتب بعيد أن تكون كونت في يوم وليلة ولا جمعت في يوم وليلة ولا فهرست في يوم وليلة .

● **بيت الحكمة :**

أعني أن وجودها لاشك تقدم على وجود ابن سينا بمدى بعيد وهذا ما يؤكد ما أقول به من أن المكتبة العربية بدأت في وضعها الطبيعي مع أواخر القرن الثالث الهجري وأنها قبل ذلك كان لها وجود أيضا ولكنه وجود يختلف عن هذا الوجود الكبير الذي احسسناه في مكتبة بخاري . وأكاد أظن أن المكتبة العربية مع ظهور الدولة العباسية (١٣٢ هـ) أخذت تثبت الخطوة الاولى من خطواتها وأنها مع مسير هذه الدولة كان مسيرها هي أيضا واستقرت أوضاعها شيئا فشيئا مع توالى الخلفاء .

ولن ننسى هنا ما كان للمأمون العباسي (١٧٠ – ٢١٨ هـ) من بيت للحكمة في بغداد وكان في هذا البيت خزانة للكتب يقال أن المأمون أمر بترتيبها وتبويبها في فهارس تسهيلا لمراجعتها ،

ولا ننسى أن نقول أن حركة الترجمة قد ازدهرت في العصر العباسي حتى أن الخلفاء أنفسهم كانوا من العلماء ومن هؤلاء :

المنصور وكان أغلب اهتمامه بالنجوم والطب .

والرشيد فقد أمر بنقل كتاب المجسطى .

واهتم المأمون بنقل كتت الفلسفة والمنطق على الخصوص .

وهكذا كتب للمكتبة العربية أن تنمو وتستقر مع العصر العباسي في الشرق وتأخذ مستواها من المكتبات الصحيحة بدليل الفهرست الذي وجده ابن سينا في مكتبة بخاري .

ولم تكن المكتبات مثل مكتبة بخاري في بلوغها هذا المستوى العلمى المتبع في مكتباتنا في العصر الحاضر ، فقد رأينا ابن الفرطي في كتابه « الحوات الجامعة والتجارب النافعة » (صفحة ٧٦) يحدثنا أن الخليفة المستعصم (٥٨٨ – ٦٥٦ هـ) قصد المدرسة المستنصرية لزيارتها وكان بهذه المدرسة مكتبة فتفقدها الخليفة ، وهنا يقول ابن الفوطى : وأنكر عدم ترتيبها .

وهذا يعني أن المكتبة لها فهارس شأن مكتبةبخاري مع انها انشئت بعدها علما بأن المستنصر بالله (٦٢٣ – ٦٤٠ هـ) الذي أنشأ هذه المدرسة وأنشأ بها تلك المكتبة كان كما يقول ابن الفوطى في كتابه « الحوادث الجامعة والتجارب النافعة » كان قد تقدم الى الشيخ عبد العزيز بن دلف الخازن الناسخ الصوفي شيخ رباط الحريم بالحضور الى المدرسة المستنصرية واثبات الكتب واعتبارها ، كما تقدم المستنصر الى ولده العدل ضياء الدين أحمد الخازن بخزانة كتب الخليفة التي في داره ايضا فحضر واعتبرها ورتبها احسن ترتيب مفصلا أيضا لفنونها ليسهل تناولها ولا يتعب مناولها .

● مكتبات المدارس :

ولكن هذا لايعنيني هنا ، لكن يعنيني أن المدارس هي الاخرى كانت تضم مكتبات وهذا يحدوني الى ان اقول ان نشأة المكتبات كانت مع نشأة المدارس في دواوين الخلافة كما تفيد عبارة ابن الفوطى .

وفي وصف المدرسة المستنصرية كما يقول محمود شكري الالوسي ، وفي جنبها من جهة الغرب دار للكتب التي لم يجتمع مثلها في غير هذا المحل كثرة ونفاسة ، وقد انفرد كل فن بمحل منها وكانت فهارس الكتب عدة مجلدات ضخام (مساجد بغداد ومدارسها محمد بهجت الاتربي) .

كان هذا خط المكتبة العربية في الشرق لكذلك كان في الري بيت ليكتب كما روى عن الحسن البيهقي اذ يقول : وأنا اقول بيت الكتب الذي بالري على ذلكدليل بعض ما أحرقه السلطان محمود بن سبكتكين فاني هذا البيت – يعني الفهرست – فوجدت تلك الكتب عشر مجلدات . (معجم الادباء لياقوت الحموي الجزء الثالث صفحة ٣١٥) .

ويروي محمد راغب الطباخ في كتابه « حلب الشهباء » ان العلامة شرف الدين عبد الرحمنالعجمي باني المدرسة الشرقية بحلب وقف عليها الكتبالنفيسة من كل فن من حديث وتفسير وفقه وغير ذلك وكان بها أربعون نسخة من التنبيه وجميع كتب الفزالي وكانت جميع الكتب مثبتة عند أقاربه في درج كبير فذهب في محنة تيمور (مجلة المجمع العلمي العربي ، مجلد ١٥) .

● مكتبات الاندلس

اما في الاندلس فلقد اثبت ابن خلدون ان اسماء دواوين الشعر في مكتبة قرطبة عاصمة خلافة بني أمية في الاندلس كانت مدونة في ثمانمائة وثمانين صفحة .

ويقول وليم درامر في كتابه « المنازعة بين العلم والدين » أن مكتبة قرطبة كانت تشتمل على ستمائة الف مجلد ويقول أن فهرست أسماء تلك الكتب كان من أربعة وأربعين مجلدا .

● وان هذه الكتب العربية الموزعة الان بين المكتبات الغربية :

الاستانة والاهلية بباريس وليدن في هولندا وغيرها لتدلك على ذلك التراث الضخم الذي كانت تضمه المكتبة العربية عامة وخاصة .

هذا التراث الضخم هو الذي صرف العرب كغيرهم من الامم المتحضرة الى وضع احصاءات وافيةشاملة لعلمائهم وللتصانيف التي ألفوها أو ترجموها في ضروب العلوم المختلفة .

– مجلة « العهد » قطر –

الرؤية الجمالية عند أبي حيان التوحيدي

بقلم : أحمد زياد محبك

في أسلوب علمي جاد ، يمتاز بالعمق والاتزان ، والموضوعية والانصاف ، تمت في كلية الاداب بجامعة حلب ، يوم السبت ٢٩/١١/١٩٨٠ مناقشة رسالة الماجستير التي قدمها المعيد في كلية الاداب ، الاستاذ حسين الصديق ، وموضوعها الرؤية الجمالية عند أبي حيان التوحيدي .

وكانت لجنة المناقشة مؤلفة من الاساتذة الدكتور فؤاد المرعي ، وكيل الكلية ، للشؤون الادارية ، وهو المشرف على الرسالة ، والدكتور فائز الداية ، رئيس قسم اللغة العربية ، في كلية الاداب ، والدكتور عصام قصبجي مدرس مادة النقد ، والادب الاندلسي .

وقد حضر المناقشة الاستاذ الدكتور أحمد هبو ، والاساتذة في الكلية ، وعدد كبير من طلابها ، ومن الضيوف ، وكان ضيف الشرف الاستاذ الدكتور صالح الاشتر .

وقد بدأت المناقشة بكلمة تقدم بها الباحث ، فعرّف بموضوعه ، ثم ذكر مسوغات البحث فيه ، ودوافعه ، ثم تحدث عن خطته فيه ، وعن نهجه ، واشار الى مالقيه من صعاب ، وما خلص اليه من نتائج ، ثم أشاد بجهود الاستاذ المشرف ، ورفع اليه شكره ، والى لجنة المناقشة .

وفي التعريف بموضوع البحث اشار الباحث الى ان التوحيدي هو أحد كتاب القرن الرابع الهجري ، صاحب كتاب المقابسات ، وكتاب الامتاع والمؤانسة ، وكتاب الصداقة والصديق ، وكتاب البصائر والذخائر ، وغيرها من الكتب والرسائل ، وهي بعض ماسلم من كتبه ، التي أقدم على حرقها أواخر حياته ، فقد كان التوحيدي قلقا متشائما ، وقد عاش حياة بائسة ، اذ كان يعمل في نسخ الكتب ليؤمن لقمة عيشه ، وما يمتاز به هو أنه يقدم فهما للجمال يعبر عن مفكر وعي ثقافات عصره ، وعاش مايضطرب فيه من تيارات واتجاهات ونزعات ، وكان فيلسوفا متصوفا ، تأثر

بالمعتزلة ، وكان ينطلق في فهمه للجمال من نظرة مثالية ، ولكنها لاتخلو من فهم دقيق للواقع ، وارتباط به صادق صحيح ، وقد أثار في فهمه للجمال مشكلات ، وتعرض لقضايا ، تعبر عن ذهن وقاد ، فقد أثار مشكلة النظم والنثر ، والالهام والموهبة ، والابداع والادراك ، وعالج قضايا كالانسان ، والاحساس الجمالي ، والفنون وتصنيفها ، والصورة الفنية ، والمعرفة .

وذكر الباحث أنه جعل رسالته في مدخل وخمسة فصول وخاتمة ، ثم لخصها بايجاز ، فقد عرض في المدخل الى فهم العرب للجمال ، وتطوره عبر العصور من الجاهلية الى القرن الرابع ، ثم عرف بالتوحيدي ، فتحدث عن نشأته وثقافته ومذهبه الفلسفي . وفي الفصل الاول عرض لنظرية المعرفة وطبيعة الجمال عند التوحيدي ، فتحدث عن موقف التوحيدي من الانسان ، وهو الموقف الذي يعلي فيه الانسان على جميع الكائنات ويجعله المدرك الوحيد لمعنى الجمال ، ثم تحدث في نفس الفصل عن تمييز التوحيدي بين الجمال المجرد ، والجمال النافع ، وأشار الى ترجمة بين هذا وذاك ، وقرن فهمه للجمال بفهم أرسطو وكانط ، وفي الفصل الثاني تحدث عن الابداع الفني عند التوحيدي ، وهو الذي يرى أن الابداع وقف على الانسان ، الذي يصدر فيه عن العمل الجاد المتقن ، وليس عن الموهبة وحدها . وفي الفصل الثالث تحدث عن التذوق الجمالي عند التوحيدي ، وهو التذوق الذي تشترك فيه الحواس ، ويقوم على الادراك والتذكر ، والذي هو في طبيعته عملية قوامها الجهد الواعي الذي يقود الى ادراك الجمال ، بالعقل وحده . وفي الفصل الرابع تعرض لتصنيف الفنون عند التوحيدي ، فأشار الى وحدة الفنون ، كما يراها التوحيدي ، ثم الى تصنيفه لها ، من صورة وخط وشعر وغناء . وفي الفصل الخامس عرض للادب وقضاياه الجمالية عند التوحيدي ، وقد اثار في هذا الفصل مشكلة الشكل والمضمون ، والتوحيدي يقدم الثاني على الاول ، وان كان لا يفصل بينهما ، كما أثار مشكلة الصدق والكذب ، والتوحيدي يؤكد أن الصدق هو الاصل ، وأن الكذب عارض لمنفعة ، كما اثار مشكلة النظم والشعر والتوحيدي يؤكد ان الوزن ليس وحده مايجعل من الشعر شعرا .

وبعد أن انتهى الباحث من تقديم رسالته ، والتعريف بها ، تفضل الاستاذ الدكتور عصام قصبجي بعرض رأيه في البحث ، فأثنى على صاحبه ، واشاد بجهوده ، واكد أهمية الموضوع ، ودقته ، ولكنه لاحظ فيه عدة مآخذ ، عرض بعضها ، وكان منها :

– تأكيد الباحث عروبة التوحيدي ، لاقامته في بغداد ، وجهله بالفارسية ، ودفاعه عن العرب ، وقد رد الدكتور عصام تلك الحجج ، وأشار الى أن الباحثين جميعهم يرون أن التوحيدي كان فارسي الاصل .

– وصف الباحث التوحيدي بأنه كان يحس بالنقص ، لعمله في نسخ الكتب ، ولذلك كان يتردد في ذكر آرائه ، ويلجأ دائما الى ذكر آراء أساتذته ، وقد رد الدكتور عصام ذلك ، ورأي ان التوحيدي كان متورعا عن التسرع في ابداء آرائه ، مثلما كان وفيا لاساتذته ، أمينا على آرائهم ، لايدعيها لنفسه .

– اعتبار الباحث الشرقيين روحانيين ، يؤمنون بالغيبيات ، متأثراً في ذلك بآراء المستشرقين ، وقد أكد الدكتور عصام أنه من الصعب اطلاق مثل ذلك الحكم على شعب ما ، فللغرب نفسه قيمه الروحية وقيمة الغيبية ، ولكن الغرب يلجأ الى مثل تلك الاحكام ليدعي لنفسه العلمية والموضوعية .

– سعي الباحث الدائم الى ربط الجمال بالواقع ، وفهمه من خلاله فحسب ، وتأكيده أن الجمال مادي ، في اغفال لدور المثل في فهم الجمال ، وادراكه ، وفي بعد عن تقدير الجمال المثالي .

وكانت ثمة مآخذ أخرى ، عرض لها الدكتور عصام ثم اثنى على البحث ، وأشاد بالايجاز فيه ، وتقديم ماهو مطلوب منه ، من غير حشو ولا تطوير ولاتكرار ، وتجنبه كثيراً من المزالق .

ثم تفضل الاستاذ الدكتور فائز الداية ، بعرض رأيه في البحث ، فحمد للباحث انتقاءه الموضوع

واعتماده النصوص ، وانطلاقه منها ، ثم لاحظ فيه أيضا عدة مآخذ ، عرض بعضها ، وكان منها ،

– مناقشة الباحث آراء التوحيدي من خلال فهم الباحث نفسه للجمال ، ورأيه فيه ، الذي هو صدى لفهم الجمال المعاصر ، من غير الانطلاق في المناقشة من خلال الفهم العام للجمال في عصر التوحيدي نفسه .

– اعتبار الباحث الآراء التي يقدمها التوحيدي في مؤلفاته ، وهي في معظمها آراء أساتذته ، هي نفسها آراء التوحيدي ، وقد أكد الدكتور فائز ان هذه الآراء لاتمثل الرؤية الجمالية عند التوحيدي ، وانما تمثل الرؤية الجمالية في القرن الرابع الهجري .

– اعتماد الباحث مصادر غير رئيسة في بحثه ، وعودته الى مراجع قريبة ميسرة ، ومن ذلك كما أشار الدكتور فائز عودة الباحث في فهم رأي كانط الى الموسوعة الفلسفية الميسرة ، وعدم رجوعه الى مصادر فلسفة كانط الرئيسة .

– حاجة الباحث الى مقدمة ، يعرض فيها فهمه الخاص للجمال ، وهو الفهم الذي يناقش أراء التوحيدي من خلاله ، وضرورة تحديد الباحث مصطلحاته في تلك المقدمة ، وهي المصطلحات التي يضطرب أحيانا في استخدامها .

وكانت ثمة مآخذ أخرى في البحث ، عرض لها الدكتور فائز ، ثم أثنى على الباحث ، وأكد أنه كان يسير في طريق سليمة ، وان تعثره هنا وهناك ، لاينفي سيره السليم والمستقيم .

ثم تفضل الاستاذ الدكتور فؤاد المرعي بعرض رأيه في البحث ، فأكد دقة الملاحظات التي أبداها زميلاه الأستاذ الدكتور عصام والاستاذ الدكتور فائز ، ونصح للباحث بأن يأخذ بها ، حين يرجع الى الرسالة لتعديلها وتنقيحها . ثم أثنى على الباحث ، وأشاد بجهوده ، وهي الجهود التي اطلع عليها بنفسه ، وتابعها ، فهو المشرف على البحث ، ثم اكد استقلال شخصية الباحث، ودأبه ، وجلده ، كما أكد جدة البحث ، فما سبقه من دراسات لم تقدم شيئا من الرؤية الجمالية عند أبي حيان ، بمثل ما قدمها البحث ، من تكامل ، فقد أعطى الباحث صورة موحدة ، للرؤية الجماليةعند أبي حيان ، وأثار موضوعات لم تثر من قبل في أبحاث علم الجمال، وهي موضوعات كبيرة ، منها الاحساس بالجمال ، والصورة الفنية ، والنظم والنثر ، والصدق والكذب، ثم أكد ان نقطة الاعجاب في البحث هي كشف العلاقة بين الواقع والمفهوم الجمالي . وأبرز نقاط اعجاب أخرى ، وكان مثالا للاستاذ المشرف ، العارف بتلميذه الباحث ، والمشجع له .

ثم رفعت الجلسة للمداولة ، بعد ثلاث ساعات ونصف الساعة من لنقاش الهادىء ، والصادق ، والعميق ، والمخلص ، الذي تابعه الجمهور بأناة وتشوق ، ولما عاد أعضاء ، اللجنة ، تلا الاستاذ الدكتور فؤاد المرعي قرار اللجنة ، الذي تم فيه منح الباحث درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها بتقدير ممتاز .

وهكذا أكدت كلية الاداب مرة أخرى ماتمتلكه من طاقات جادة ، يمكن لها أن تقدم في البحث جهوداً مخلصة ، وهي التي منحت من قبل ، وخلال بضعة أشهر قليلة سابقة ، درجة الماجستير ، لثلاثة باحثين ، في ثلاثة موضوعات ، كانت :

١ – الدكتور سامي الدهان ، حياته وشعره ، للباحث أحمد عصلة ، و ٢ – أثر أدب الحكم والوصايا والامثال الفارسي في الادب العربي في العصر العباسي الاول ، للباحث عيسى العاكوب ، و ٣ – الاديرة وأثرها في الشعر الخمري في العصر العباسي الاول ، للباحث المعيد عبد السلام الراغب . وهي جميعا بحوث جادة ، دقيقة ، تنم عن جهد مخلص ، ولكنها تفتقر جميعا الى مطالعة المصادر الغربية بلغتها الأم ، ولاسيما حين يكون الموضوع مرتبطا بمثل هذه المصادر ارتباطا وثيقاً، مثل موضوع الرؤية الجمالية .

ويبقى الامل في الرسائل الجامعية التالية ، وهي لن تكون لنيل الماجستير فحسب ، بل لنيل الدكتوراه أيضاً ، ولاسيما بعد أن أعلن في كلية الاداب بجامعة حلب وجامعة دمشق ، عند البدء بتسجيل رسائل الدكتوراه ، للعام الدراسي الجديد ١٩٨١ – ١٩٨٢ .

أحمد زياد محبك – حلب

كلية الآداب

سوق عكاظ في التاريخ والأدب

«منشورات نادي الطائف الأدبي»

بقلم: محمد حمد الصويغ

.. من الكتب الجيدة التي أصدرها نادي الطائف الادبي ـ لجنة الاثار التاريخية ـ كتاب: (سوق عكاظ في التاريخ والادب) .. بمناسبة فكرة احياء سوق عكاظ في نفس الموقع الذي كان فيه أيام الجاهلية .

.. وهي فكرة جيدة لاشك تتبناها الرئاسة العامة لرعاية الشباب بالمملكة للنهوض بالحركة الادبية المعاصرة هناك بعد فتور كاد أن يصيبها بالشلل لانهماك معظم الادباء والشعراء في شبه الجزيرة العربية ومنطقة الخليج (بالاسهم والاراضي والعقارات والبيع والشراء) .. مما صرفهم عن الادب أو صرف الادب عنهم ـ لا أدري ايهما أصح ..

.. ولعل نجاح الكتاب في الاسواق الداخلية للملكة وهو من بواكير اصدارات النادي .. ساعده بعد ذلك على الاصدارات الادبية الاخرى .

.. والكتاب يعرض في شيء من التفصيل لتاريخ السوق الادبي ، وقد تراءى أمامي وانا أقرأ الكتاب شكل السوق عند احيائه .. وتراءى أمامي مجموعة من الشعراء وهم يتسابقون لالقاء قصائدهم فيه ، بينما عج بمجموعة أخرى من النقاد لتقييم شعر هذا أو ذاك من الشعراء .

.. أما موقع السوق فقد اختلف عليه ، فمنهم من يقول انه على مرحلتين من مكة ومنهم من يقول أنه من الطائف أقرب ، ويبعد عنها بنحو مرحلة أو مرحلتين ومنهم من يقول أنه بين نخلة والطائف ، وبعد كثير من الاجتهادات والمداولات والدراسات الطويلة العريضة في المراجع الادبية القديمة وجد انه في منطقة (الحوية) ويبعد عن الطائف بنحو اربعين من الكيلو مترات ، وبالتحديد في المكان الذي يلتقي فيه الواديان الكبيران: وادي شرب ووادي الاخيضر عند الحرة السوداء .

.. وسوق عكاظ كما هو معروف لدينا يعتبر من أهم الاسواق العربية في الجاهلية وفي صدر الاسلام أيضا ، وقد اندرس ذكره أثناء حروب الخوارج فنهب السوق وتناساه الناس بل تناسوا موقعه ، وكان يقال حتى عهد قريب أنه يقع على السيل الكبير وهو موقع مشابه لالتقاء الواديين المذكورين .

.. أما سبب الحرب التي دارت في هذا السوق وأتت عليه فقد وقعت في أيام ـ الفجار ـ وسميت الحرب بعد ذلك بهذا الاسم لانها وقعت في أشهر حرم لايجوز فيها القتال ، فانه لما اجتمعت كافة العرب في عكاظ ، وكان سيد هوازن معهم ويدعى عروة الرجال قد أجار ـ لطيمه ـ للنعمان بن المنذر كان يبعثها له في كل عام في سوق عكاظ ويبيعها فيه ، واللطيمة تعنى ابل تحمل الطيب والبز وطرائف من طرائف الحيرة أي أقمشة من هناك ، فلما انتصف بابله في الطريق لحقه البراض الكناني فقتله في موقع يقال له النقرة واخذ لطيمته وارسل رسولا الى حرب بن أمية

سيد قريش ينهى اليه مقتل عروة بن الرحال فاستشار حرب رؤساء قريش وبني كنانة ، فاشاروا عليه أن ينصرف من مكة ولا يحضر عكاظ ، ففعل ذلك ، بيد أن القيسية علموا بمقتل عروة فشمروا عن سواعدهم واتجهوا الى عكاظ ، وكان من بينهم قيس عيلان بن عامر بن مالك ويلقب « بملاعب الالسنة » وهو عم عامر بن الطفيل فلحقوا بكنانة في بطن نخلة فدارت معركة حامية الوطيس ، سرق على أثرها السوق ، ثم اتت الحرب على معالمه وأطلاله واندثر منذ تلك الحرب .

.. وتسمى هذه المعركة في أيام العرب بيوم نخلة .. وهو من أيام الفجار كما اسلفت ومن هذه الايام أيضا يوم شمطاء ويوم العبلاء ويوم الحريرة ، كلها أيام معارك دارت في مكة أيام الجاهلية .

.. وان اختلف الرواة حول موقع السوق فهذا يعود كما يقال الى أن للطائف من مكة أربعة طرق مختلفة اذا علمنا وتأكد لنا ان سوق عكاظ انما يقع بين مكة والطائف ، اما الاول فهو طريق يمر بعرفات وقد مر به الرسول الكريم صلوات الله عليه وسلامه عند عودته من دعوة ثقيف الى الاسلام وهو يعتبر من أصعب الطرق الاربعة واوعرها في ذلك الزمان ، ثم الطريق الثاني ويخترق منهل حنين ويتجه نحو الشرق مارا بعقبة (دجنى) .. ثم ينحدر الى وادي قرن ثم الى الطائف .. وكانت جميع القوافل في الجاهلية تسلك هذا الطريق وليس من المستبعد ان يكون هو نفسه الطريق الذي تربص فيه البراض الكناني ليقتل فيه عروة الرحال ويستولي على لطيمته وقافلته بأسرها .

.. أما الطريق الثالث فهو يمر بسهل يسمى — الشرائع — ومن ثم وادي يدعان — ثم بوادي — سبوحة — فقرية الزيمة فوادي نخلة اليمانية فقرن المناز أو هو ما يسمى بـ (السيل الكبير) الذي يظن أن موقع السوق فيه ، ثم المناقب ثم الطائف وهو الطريق الاسهل في أيام الجاهلية لعبور القوافل رغم انه أطول مسافة من الطريق الثاني .

.. ثم الطريق الرابع والاخير ويتجه من مكة شرقا حتى يجوز الجبال فيمر قرب عكاظ تماما الى الطائف .. واولئك الذين يقولون ان سوق عكاظ يقع بين نخلة والطائف انما قصدوا هذا الطريق .. وفي هذا الطريق بالذات وقعت جميع أيام الفجار وقد سلكه أيضا رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم أثناء غزوة الطائف الشهيرة .. فهو يكون قد سلك اذن النخلة اليمانية ثم قرن المنازل ثم بطن المليح ثم بحرة الرغاء من وادي — لية — فوادي نخب ثم القرن الاسود .. ثم دخل الطائف .

.. اذن .. فموقع السوق هو بين مكة والطائف رغم اختلاف الروايات وتشعبها ..

.. وكانت العرب تحيي هذا السوق على مدى عشرين يوما كاملة من أول شهر ذي القعدة ثم ينتقل السوق بعد ذلك الى ذي المجاز لمدة عشرة أيام ، ولكن أشهرها على أي حال هو سوق عكاظ .

.. أما سوق المجنة فيقع في شمال مكة بواد يسمى — الظهران — قرب جبل « الاسفل » ولعلهم أطلقوا عليه هذا الاسم لانه يقع في أسفل مكة أما سوق ذي المجاز وهو من الاسواق الثلاثة الشهيرة فيقع في — عرفة — عند جبل كبكب بمكة .

.. بيد انه يجب ان لايظن البعض ان هذه الاسواق هي مقصورة على — الشعر أو أنها أسواق أدبية صرفة — ولكن العرب اختاروا هذه الاسواق الثلاثة وأهمها — عكاظ — لانها مكان فسيح للتجارة بأنواعها ، وبه نخل كثير ومياه غزيرة ، ثم انها قريبة من مناسك الحج فهي اذن أصلح الامكنة لتبادل السلع التجارية بين المشترين والبائعين وهي أشبه ما تكون بمحطة تجارية كبرى لتبادل التجارة سواء كانت من السلع الغذائية أو الالبسة أو غيرها ، شأن هذه الاسواق شأن الاسواق التجارية العامة .

..بيد أن — عكاظ — اتسعت اغراضه بعد ذلك فكان ميدانا للترفيه عن الحاضرين وتسليتهم بالطرائف والفكاهات .. ثم تطور الامر بعد ذلك فأصبح السوق ميدانا للشعراء يفاخرون فيه عن طريق الشهر بقبائلهم وايامهم وانسابهم وحروبهم .

ومن أشهر ماشهده السوق من أشعار هي تلك التي تسمى بالنقائض استفحلت حتى أضحت طريقا من طرق التعاظم والعلو مما أثار الجدل والصخب بين القبائل العربية في ذاك الوقت ، ومن ثم نشبت الحروب المشهورة في تاريخ العرب من جراء هذه النقائض الشعرية .. ولعل هذه النقائض كانت هي السبب المباشر للقضاء على السوق وتدميره .. والله أعلم .

.. وسوق عكاظ كان يحتل مكانة كبيرة في نفوس أهل الجاهلية مع السوقين الاخرين مجنة وذي المجاز ، ففي هذه الاسواق يجتمع اشراف العرب وزعماؤها

وتجارها لتبادل الرأي والمشورة في كثير من الامور ، فهو أشبه بمجالس الشورى في وقتنا هذا فهذه الاسواق اذن لم تقتصر على التجارة والادب فحسب ، وكانت تقام في الاشهر الحرم تحاشيا لنشوب القتال بينهم .. رغم أنهم لم يفلحوا في ذلك .. فالحروب كانت تندلع بينهم في هذه الاشهر كما رأينا عند الحديث عن أيام الفجار .. والغزوات التي كانت تحدث في الايام الحرم .. أو الاشهر الحرم .

.. بيد أننا يجب أن نفند المقولة التي تدعى أن سوق عكاظ عرف أيام قريش في الجاهلية ولم يعرف قبل ذلك وقارىء التاريخ القديم يدرك دون شك أن سوق عكاظ لم يقتصر على عهد قريش ، وانما امتد الى قبل ذلك في عهد خزاعة ثم قبل ذلك في عهد جرهم لان عمر قريش لايزيد عن خمسمائة سنة قبل المبعث ، بينما سوق عكاظ يمتد تاريخه الى القرن الثامن قبل الهجرة بل أن له الفضل الاكبر في المحافظة على اللغة العربية وتوحيد اللهجات الادبية منذ ذلك التاريخ .. ودليل ذلك أن كل شاعر في السوق كان يحاول ان يفهم ما يقوله من شعر الى كافة الحاضرين وأن يلقنه اياهم ليحفظوه ، وعملية كهذه لا تتحقق عن طريق لهجات قريش الخاصة وانما عن طريق لهجة أدبيـة موحدة عامـة .

.. لقد كانت منابر عكاظ كالصحافة اليـوم .. طريقة اعلامية لنشر الثقافة والادب والعلم بين العرب وقتذاك وقد أمها النبي صلى الله عليه وسلم لنشر دينه عندما رأى تجمع الناس في عكاظ ، ومن هذا المنطلق بدأ كفاحه ضد قريش .. ومن ثم ضد الجهل والتخلف والظلم والجبروت والقهر وغيرها من الادوات التي كان يمارسها اشراف قريش مع أهل مكة .

.. وقبل مبعثه عليه الصلاة والسلام اشترك في حرب الفجار ، وكان يرمي بالنبل في صفوف قريش ، وكان له من العمر أربعة عشر ربيعا ، وفي هذا الشأن يقول بعيد مبعثه : (كنت أنبل على عمومتي يـوم الفجار ، ورميت بأسهم تمنيت انني لم أكن فعلت) .

.. وكان عليه الصلاة والسلام قبل مبعثه شديد التعلق بسوق عكاظ وكان يرهف السمع لخطيب العرب وحكيمهم قس بن ساعدة الايـادي ويثني عليه .

.. ولعل من المناسب هنا أن انقل رواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حاول في أول مبعثه أن يجذب الناس الى دعوته في سوق عكاظ ، تقول الرواية على لسان عبد الرحمن العامري أحد أشراف قريش

(.. أتانا رسوق الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن بسوق عكاظ فقال ممن القوم .. ؟ .. قلنا : من بني عامر بن صعصعة قال : من أي بني عامر .. ؟ .. قلنا : بنو كعب بن ربيعة ، قال : كيف المنعة فيكم .. ؟ .. قلنا : لايرام ماقبلنا ولا يصطلى بنارنا قال : فقال لهم : اني رسول الله ، فان اتيتكم تمنعوني حتى أبلغ رسالة ربي ولم أكره أحدا منكم على شيء .. ؟ .. قالوا : من اي قريش انت .. ؟ .. قال : من بني عبد المطلب ، قالوا : فأين أنت من بني عبد مناف قال : هم أول من كذبني ! وطردني ! قالوا : ولكنا لانطردك ولا نؤمن بك حتى تبلغ رسالة ربك ! .. قال : فنزل اليهم والقوم يتسوقون اذ أتاهم بجرة بن قيس القشيري ، فقال : من هذا الذي أراه أنكره ؟.. قالوا : محمد بن عبد الله القريشي قال : مالكم وماله .. ؟ .. قالوا : زعم انه رسول الله يطلب الينا أن نمنعه حتى يبلغ رسالة ربه..! .. قال : فماذا رددتم عليه .. ؟ .. قالوا : قلنا في الرحب والسعة نخرجك الى بلادنا ، ونمنعك مما نمنع به أنفسنا) .

.. اذن لعب سوق عكاظ أيضا اضافة الى أنـه تجمع تجاري وادبي واعلامي في ذلك الوقت ، لعب دوره الكامل في ـ اللقاءات والتجمعات التي كان ينادي بها الرسول الاعظم في بداية دعوته ، وحصل عليـه الصلاة والسلام على مؤيدين لدعوته في بدايتها مـن سوق عكاظ .

.. ومن أهم خطباء السوق كما اسلفت قس بن ساعدة الايادي الذي كان الرسول الكريم يعجب بخطبه، وفيه يقول أحد الشعراء القدامى ممن عاصروه مادحا وقد اتخذ مثلا سائرا من الامثال العربية !

فانك ضحاك الى كل صاحب
وانطق من قس غداة عكاظها

.. ولعل من الصواب أن أقول وانا اختم هـذه المقالة ان معظم اصحاب المعلقات السبع أو العشر كانوا يقولون هذه الاشعار في سوق عكاظ .. قبل التفكير في تعليقها على أستار الكعبة كما كانوا يفعلون في جاهليتهم .

.. وبعد ، فان (سوق عكاظ في التاريخ والادب) هو مرجع هام لابد لكل مثقف من الرجوع اليه للاحاطة علما بهذه السوق وغيره من الاسواق العربية القديمة التي لعبت دورا هاما في تغيير وجه الحضارة العربية في ذلك الوقت .

● محمد حمد الصويغ ●

الشاعر نبيه سلامة

بقلم : نعمان حرب



افضل تعريف للشاعر نبيه سلامه ، من كبار شعراء العرب في البرازيل الكلمة الموجزة التي كتبها عنه الاديب توفيق قربان من مدينة سان باولو : «ككتيل بالعربية شوب — الككتيل مزيج الشربة والشوب مزيج اشربة . في سورة الصافات نتلو : «فانهم لآكلون منها ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم» .

وفي الادب العربي انذار نصوح «يا مكثري الدعوى اخفضوا اصواتكم ماكل رافع صوته بمؤذن» .

اصحاب الدواوين ناظمو در او ناظمو خرز . وكلهم يقدمون للشعراء شوباً لتغذية العقل وترويح القلب فالذي يشرب من شوب الخراز تجرع «شوبا من حميم» فيه كبريت ورصاص مذاب «وشواظ من نار ونحاس» «سورة الرحمن» .

امانبيه سلامة كما تناديه العامة او سليم نباهة كما تعرفه الخاصة فناظم در شأن الشعراء الخالدين وهو يقدم للقارىء شوباً من : نمير الافكار اليانعة — وفرات الالفاظ السائفة — وزلال التجاوب والاتساق — وسلسبيل الانبثاق الطوعئ — وكوثر صفاء الابناء عن «كنه مافي الفؤاد» شوباً محلى بصدق العاطفة — ومعطراً بخلوص النيـة .

حياة في سطور :

— ولد نبيه بن نقولا سلامه في مدينة حمص بتاريخ ٤ — ٣ — ١٩٠٨ .

— عمل مراسلا لجريدتي «الف باء الدمشقية» و «لسان الحال» البيروتية طيلة عامي ١٩٢٥ و ١٩٢٦ . وفي عام ١٩٢٧ نال اهلية التعليم السورية . وعلم في مدارس : محردة ، حماة ، دمشق حمص .

— اصدر مع فريق من ادباء حمص مجلة «البحث» في عام ١٩٢٨ .

— ١٩٣٠ اصدر رواية «جاكلين أو لذائذ الانتقام»

— اشترك عام ١٩٣٢ مع بعض الادباء بتأليف كتاب «فقيد حمص» .

— هاجر الى البرازيل عام ١٩٣٥ .

— حرر في جريدة «الرابطة السورية» منذ عام ١٩٣٦ الى ان اغلقتها حكومة البرازيل مع بقية الصحف الاجنبية لمناسبة الحرب العالمية الثانية .

— اشتغل بالتجارة منذ عام ١٩٤٠ ، ولكن حظه كان فيها قليلا اذ التهمت النيران محله التجاري ،

فانتقل الى بعض المدن البرازيلية مواصلا عمله التجاري .

– عام ١٩٦٤ اشترك بتأسيس «جامعة التعليم»

– استقر منذ عام ١٩٦٧ في مدينة سان باولو . وحرر فيها في مجلة « المراحل » . كما انه لا يزال حتى الان يحرر في جريدة « الانباء » البرازيلية . ويراسل جريدة « حمص »

– عام ١٩٧٠ اصدر كتاب « داود شكور اديب وخطيب » .

– عام ١٩٧٣ اصدر ديوان « اوتار القلوب » جمع فيه مانظمه من شعر منذ حداثته. وجعله خمسة اجزاء: حلقات مبعثرة ، هيمات الحنين . قنابل بلا دخان ، نواحة مداحة ، اللقاط بعد الحصاد . ولكل جزء مواضيعه الخاصة . وقال عنه : انه شعر مناسبات من الفه الى يائه ولكنه ليس بدعة جديدة مبتكرة فهو كامثاله من الدواوين المعروفة ولولا المناسبات لما كان لنا الشعر .

وقد علقت في زهنه منذ حداثته عبارة كان يقولها الكثيرون بشيء من الاستهتار « شعر مناسبات » واخذ يعتقد بان هذا النوع من الشعر هو من سقط المتاع لانه يقال لمناسبة خاصة وتنتهي مهمته بانتهاء الغاية التي اوجدته . وظلت هذه القصيدة مسيطرة عليه ، يرمي شعره كما يرمي شعر الاخرين لانه « شعر مناسبات » الى ان جاءته رسالة من صديق له في بيروت. الشاعر رفيق الاسعد ، يقول له فيها ان احب انواع الشعر اليه « شعر المناسبات » حينذاك عاد الى قرارة نفسه ، واخذ يراجع ماوعته مخيلته من شعر قديم وحديث . فاذا به كله « شعر مناسبات » .

فلولا مناسبة صراع الاسد لما قال بشر بن عوانه « افاطم لوشهدت ببطن خبث » .

ولو لا موت صخر لما قالت الخنساء : « يذكرني طلوع الشمس صخراً »

ولولا دخول امرؤ القيس الى خدر عنيزة لما كانت معلقة « قفانبك »

ولولا عنجهية عمرو بن هند لما وصلتنا معلقة : « بأي مشيئة عمرو بن هند »

ولولا انتصار المعتصم في عمورية لما كانت رائعة ابي تمام : « السيف اصدق انباء من الكتب » .

ولولا ، ولولا ، الى مالانهاية له . لان المناسبة لاتنحصر في الحوادث الفردية ولكنها تشمل الوصف والعاطفة وجميع مايتصل بحياتنا . وبذلك يؤمن نبيه سلامه بانه لولا المناسبات لما كان لنا شعر .

نفحة من شعره :

عندما تفتحت عيون نبيه سلامه وامثاله من الشباب العرب ، بعد نهاية الحرب العالمية الاولى ، رأوا الاستعمار الغربي يقبل ويجثم على صدور العرب في كافة اقطارهم . فخابت آمالهم بالوعود التي قطعها المستعمرون للعرب ، عندما كانوا يحاربون الدولة العثمانية . واخذ هذا المستعمر يعمل على تمزيق وحدة البلاد ، وتقسيمها الى دويلات ، فكانت اشعاره تتفجر من الالم ، ولكنها تؤمن بالمستقبل ، وبقدرة امته العربية على اداء دورها في كافة ميادين الحضارة والمجد . فقال:

دور العروبة عقد ليس تفرطه
كف ولا نظمت امثاله الشهب

لم يبرح المجد معقوداً بحاضرها
كانما المجد وقف صانه العرب

مأساة فلسطين :

استأثرت قضية فلسطين ومأساتها باكثر اشعاره ، وهي تصور كلها في نفس هذا الشاعر مدى الحماس البالغ التي تنطوي عليه نفسه العربية . وعندما فشلت الدول العربية عام ١٩٤٨ في معاركها التي خاضتها مع العدو الصهيوني ، وعادت منها مكسورة ، قال ، والامل يعمر فؤاده :

قل للعذول اتئد لم يخفق العرب
اشاوس غالبوا الدنيا وماغلبوا

ومن يعيب على الفرسان كبوتها
وهل تبدد انوار الضحى السحب

بغداد مافتىء المأمون يكلؤها
وعن دمشق بنو مروان ماغربوا

عجبت للارز لا تعنو بواسقة
شيخ تجدده الآلام والحقب

والنيل يرمي عن الاهرام ملحمة
اعجوبة عجزت عن حلها الكتب

نكسة ١٩٦٧ :

وكانت نكسة حزيران ١٩٦٧ ، فنظم هذه القصيدة وجعل عنوانها « خجل وأمل »

كحلت عيني بالرمد
كي لا أرى حولي احد

كي لا أرى قبسا تدفق
كالاتون على البلد
كي لا أرى الجبار
جولياتا يجند له الولد
كي لا يقال أما رأيت
بعوضة تدمي الاسد
كي لا أرى شعباً يفر
من التحرر للصفد

* * *

دار الزمان ولم نزل
نبني القصور على الزبد
ثارت علينا العاصفات
فقوضت كل العمد
وتناثرت احلامنا
كالشمع يصهره الوقد
انظل في سبل الدجى
متسكعين الى الابد
أين القرار لامة
ينتابها جزر وقد

* * *

إني أرى جرحاً ينز
ولا أرى طبا خمد
لاتمسح الشكوى الجروح
ولا تعوض مفتقد
هبوا لاطفاء اللهيب
فليس يجدينا الفند
يانائمين على الخيال
أما لنومكم أمد
انا لا النوم اللص
مختلساً واعنف من وقد

* * *

ديان حاولت الاذى
فعدوت افضل من رشد
ايقظت من غفلاته
شعباً تنافر وانفرد
جمعت من فرقتهم
وغسلت ادران الجسد
والتبر إن عالجته
بالنار تصلح ما فسد
حفظ اليهود له يداً
وله حفظنا الف يد

* * *

قوموا لنخلق عهدنا
لاتربطوا أساً بغد
ومتى الذئاب تكشرت
لاينفع الشاء العدد
اني أرى شعبا تمنطق
بالعروبة واتحد
يستل من عزماته
سيفاً يقارع من رعد
متواثباً نحو الوغى
ليرد ما العاتي حصد

* * *

قولوا لمن هتك الحدود
حذار فالشمل انعقد
إن غيب السبت الضحى
فالبعث في يوم الاحد

الى القدس :

وخاطب القدس بهذه القصيدة :

مهبط الوحي لن ينالك « بلفور »
ولو دفق « التميز » سلاحا
نحن من امة اذا ما الاعادي
غمزتها ترخص الارواحا
كلما اطبق الغريب عليها
ايقظ الجور في الصدور الكفاحا
هبه « ريكارد » حولة واقتداراً
سيلاقي بكل فرد « صلاحا »

* * *

ايهذا المغري الشرير بارض
كيف تقوى على اقتحام العرين
ضاقت الارض باليهود فهاموا
لاتحاول احياء شعب دفين
بعض ما يلتقي جنودك منا
عزمات كالصارم المسنون
اورثتنا الجدود مجداً ثميناً
وسنبقى على التراث الثمين

* * *

يا فلسطين ماعدمت حماة
ينصبون اللواء فوق الدماء
لايهابون من دنو المنايا
فهي في شرعهم سبيل التعاء
وقف الكون معجباً بشباب
لم يرعهم تراكم الاشلاء
بيضوا بالدماء صفحة شعب
سودتها غباوة الرؤساء

* * *

يا ضحايا الجهاد ما اندثر الجسم
ولا سيطرت عليه الرموس
انتم في رعاية الحق احياء
وفي الوطن الحبيب شموس
كل جرح حملتموه وسام
كل صوت قذفتموه خميس
رن في مسمع الزمان هتاف
نقلته الى الخلود الطروس

* * *

في حنايا القدس الشريف شباب
يتمشى الى العلى استشهادا
اعزل يمهر الرصاص فؤاداً
لاينال الرصاص منه مرادا
مارت الارض بالدماء فكانت
شعل الخلد فوقها تتهادى
وتداعى الى الممات رجال
علموا الناس بالممات الجهادا

* * *

غلغل الخطب في فؤاد فلسطين
فادمى من روعه الأعرابا
فاذا الشام جمرة تتلظى
والعراق المفئود حث الركابا
وتنادى الاباة من كل صقع
ومشوا مشية الليوث الغضابى
من يرم في مواطن العرب داراً
يجد الصارم الصقيل جوابا

المولد النبوي الشريف :

في عام ١٩٤٨ اقامت الجمعية الخيرية الاسلامية في سان باولو حفلة في ناديها ، احياء لذكرى المولد النبوي الشريف ، دعي اليها الشاعر حيث القى قصيدة رائعة منها هذه الابيات :

اليوم عيد – مرحبا ياعيد
يجلو القلوب قدومك المشهود
ولد النبي فجددت اثوابها
دول يجدد مجدها المولود
ماضي العزيمة لاتقر جهوده
فطن بتسيير الشعوب سديد
احيا بانحاء الجزيرة أمة
تعنو لبيرقها الرفيع بنود
جعل الهداية مشعلا بكتابه
فمشت على النور الصحيح البيد
وتواثب العربان في طلب العلى
فمضى بهم ولواءه معقود
تغزو البلاد حضارة عربية
والقادرون المهتدون عديد
إن خلد التاريخ امة يعرب
فمحمد أولى به التخليد

* * *

يا صاحب العيد الذي تذكاره
مجد على مر الزمان جديد
فاصفح اذا شاهدت عيدك ساكنا
فالعيد في العام العتيد سعيد

رسول الى الوطن :

وكم تهز الذكريات أوتار القلب ، وتحمل نسمات عاطرة اريج الوطن الى الاعماق . وكم تطوف اخيلة الشاعر في دنيا الاحبة والاخوة ، ويرى صورهم في النجوم الساحرة ، والحمامات الطائرة ، واللفحات العاطرة . فيقف ويناجي :

ايها السائل عن ليل الغريب
لم ينم
هزه الشوق الى دار الحبيب
فوجم
يغسل الآلام بالدمع الصبيب
والندم
يانجوماً شهدت ليل المحن
اسدلي الستر على هذي الفصول
واهلي البشرى الى أهل الوطن
لتكوني بينهم نعم الرسول

* * *

كلما رفرف طير في الصباح
سيراني
مدنفاً يقضي الليالي في نواح
وأماني
ليت لي من مهجري النائي براح
للمغاني
واذا خيب احلامي الزمن
ياطيور الصبح روحي للكلول
واصبغي المأساة باللون الحسن
لتكوني بالحمى نعم الرسول

* * *

كلما هبت علي النسمات
اتذكر
زمنا كانت لنا فيه حياة
تتبلور
حكم الدهر علينا بالشتات
وتنكر
فحملنا البعد شوقاً وحنين
وبعثنا نسمة الصبح تقول
اننا نحي بنعمى وددن
فاسمعوها انها نعم الرسول

حبه لحمص :

وقد اشتهر الشاعر بحبه لمسقط رأسه « حمص » والتغني بها ، والاعجاب الشديد بكل مافيها . فهي تلتصق بروحه وقلبه، وتتحرك في كل نبضةمن نبضاته. لقد غادرها مكرها في ريعان الصبا ، وبراعم شبابه لما يكتمل تفتحها بعد .

فيقول في حفلة تكريم الشاعر الياس قنصل عام ١٩٣٧ :

تباركت ياحمص بين البلاد
وأمرع روضك طول المدى
ثلج بحجبك عنا البحار
ورسمك رغم البعاد بدا
حملنا منالك بين الضلوع
وما خل من يحمل الفرقدا
كأن المهاجر حمص تسير
وتنشر ما حولها السؤددا
تبثين في ناشيئك الوثوب
ويتخذون السها مقعدا
تغلغل فينا هواك الصحيح
فحالت حماك لنا معبدا
معاذ الهوى ان يفل البعاد
بنين يجلونك الاكبدا
اذا ما الـمت بك النائبات
وناديت كنا جميعاً مدى

في الوصف والغزل :

وللشاعر نبيه سلامه جولات موفقة في الوصف والغزل . ومن اقواله عن شيمة العاشق :

ملك الفؤاد باعين فتانه
من ناصري مما جنى جفناه
فأتيت اسأل بلسماً ورضابه
لي بلسم ، لكن أبى اعطاه
قال اصطبر فالصبر شيمة عاشق
لاكان حب مل من شكواه

وضمه مجلس مع فتاة حسناء تدعى « ثريا » وطلب اليه ان يصفها ويصف فسطانها الاسود فقال :

قالوا « ثريا » قلت ، شمس الضحى
تسبي النهى بجمالها الخلاب
قالوا وهذا الثوب قلت سحابة
ياما احيلى الشمس خلف سحاب

وطلب اليه ان يصف رفيقتها التي تلبس الثوب الازرق حذراً من غيرتها ، فقال :

وقال لي صاحبي صفها فان لها
ثوباً بديعاً ووجهاً فاتناً يغري
فقلت فسطانها يحكي بزرقته
لون السماء وهذا الوجه كالبدر

وقال في حالة يأس :

إن حال بيني العاذلون وبينها
ورموا على خدر الحبيب نطاقا
وفقدت ما ارجو وصح رجاؤهم
ورأيت في بسماتهم ارهاقا
ناديت اهلا بالممات لعلنا
يوم القيامة في السما نتلاقى

ودخل ومعه صديقه المنشد الاستاذ محمد القطيع أحد المقاصف ، وكانت فيه مضيفة حسناء تتدلى بين نهديها قلادة تمثل المسيح مصلوباً . فانحنى الاستاذ القطيع وراح يستعطفها حتى تسمح له بتقبيل السيد له المجد، فدفعه المشهد ليقول :

حسناء كالظبي الغرير دعابة
تسبي النهى بجمالها الموهوب
تخذت قلادتها المسيح معلقاً
رمزاً لكل متيم محروب
فجثا « محمد » يستغيث بصدرها
طمعاً بلثم الصدر لا المصلوب

وقال في الحسناء والقهوة :

وابت شراب البن ابقاء على
وجناتها من سمرة فضاحه
لاتجزعي فالورد في اكمامه
يرجى ويهمل ان اماط وشاحه
والبدر يخترق السحائب ناصعاً
والشمس تلقى بالغمام رجاحه
قل للمليحة ان تكف دلالها
ليست قلوب العاشقين وطاء
انا ما رأيت حديقة فتانة
إلا وذرتها الرياح هباء

* * *

رقص الصبح على وجنتها
وتعالى عطرها يسبي النظر
ليس هذا بشراً بل ملكاً
من رأي الاملاك غيري في البشر ؟

* * *

خطرت ودغدغة النعيم بوجهها
وبقيت اذبل حسرة وتلهفا
فكانها اسحق بعد نجاته
وكأنني يعقوب فارق يوسفا

* * *

لاتغضبي ان قلت للغيد الحسان
بانهن ملكن عاطفتي ولبي
مالي سوى قلبي وانت ملكته
ولقد احب سواك اخفاء لحبي

* * *

وهناك قصائد كثيرة ، فاضت بها قريحة الشاعر، وقد اوردها في ديوانه « اوتار القلوب » واطلق عليها عنوانا « اللقاط بعد الحصاد » .

ان نبيه سلامه الشاعر ، هو نفسه الانسان المثالي، يتفجر عاطفة واحساساً . واسمعه يقول نثراً : عندما تتحرك العاطفة تبدو آثارها في قسماتنا سواء كان عن غبطة أو الم . كل مانراه ونسمعه يثير العاطفة. ومتى تحركت الاحساسات ينطق اللسان ويعرب عما يختلج في باطننا .

فالفرح وليد العاطفة ، والحزن وليد العاطفة ، وكلاهما متساو في الجوهر . والكلمات تميز عوامل الالم عن البهجة .

وثقة مني بوحدة الشعور وتجانسه فقد جمعت النقيضين غير مميز بينهما .

الانسان الذي لايشعر مع الغير هو جماد . من عاش غريباً عن محيطه فهو بعيد عن الانسانية . صدق من قال : « المشاركة بالفرح تضاعفه ، والمشاركة في الحزن تناصفه ، فمن رغب براحة الضمير عليه ان يرافق السراء والضراء لتتجلى رقته وفهمه للحياة .

الانسان عضو متمم للمجتمع فلا يجوز ان يتخلى عن مركزه » .

الحياة ملأى بالمفاجآت ، ولا يمكن التغلب عليها بغير التضامن . وما تفصله اليوم قد تسترده في الغد .

ماحضرت اجتماعاً الا وشعرت بانني من صميم المنزل ، فصفقت عندما هزجوا ، وبكيت عندما ناحوا .

اقدم بعض ماقلته في حالتي لوعة وغبطة ، وكنت صادقاً لاني ترجمت بكلمات ما قالته العاطفة بخلجات.

وما بكيت ذوي القربى بأكثر من ذوي الصداقة . فما قلته في الجميع كان عصير الشعور ، والشعور لايتجزأ ولا يأتينا بالتقسيط .

هذا ما قاله نبيه سلامه عن شعوره ونظرته الى الحياة . وقد يختلف معه كثيرون من الادباء والشعراء، حول النظرة الى الحياة . وفلسفة وجود الانسان ، وقربه وبعده عن المجتمع الذي يعيش فيه . وفي كلا الحالين ، فان حياة نبيه سلامة الانسان تنطبق عليه كشاعر . وكم رثى من الاصدقاء والمعارف رثاء صادقا بعيداً عن التكلف والزلفى . وهو كما قال لم يبك ذوي القربى باكثر من ذوي الصداقة . وهذه الصفات العالية التي تنم عن خلق رفيع ، وطهارة في القلب والوجدان، وصدق في الشعور والاحساس . اشتهر بها شاعرنا بين اقرانه وزملائه في المهجر .

لقد هاجر نبيه سلامه الى البرازيل في عام ١٩٣٥، تاركاً مرابع الانس وجنات الخلد . يحمل بين جانحيه الآمال والاحلام. آمال المستقبل واحلام الحياة الوارفة. انه كغيره من بني وطنه . يطمح الى النعمة والثراء ، الى بناء مستقبل متين الدعائم ، وارف الظلال ، ليتفيأوه اولاده من بعده . وخاض معركة الحياة ، فلم ينجح كما نجح غيره من المغتربين . فالاقدار عبست في وجهه ، والتهمت النيران محله التجاري . وهذا الميدان — ميدان المادة — وهو المطمح والمبتغى في نظر كل مهاجر . لا يصلح ليكون ميدانا لشاعر ، تومضه وخزة الالم ، وتعذبه زفرة الثاكل ، وتدميه وهو في طريقه الى عالمه المثالي الآخر كي يحلق فيه كالطائر الصداح ، لايهمه الا الشدو والتغريد ، ولا يبالي بالريش الذي يكسب والجوف الذي يحتويه . وهل الشاعر الا ذلك الفنان ، ذلك الطائر المفرد في سماء اللانهاية ، والمطل من على ، يضحك من المخلوقات الراكضة المتهافتة ، المتصارعة في سبيل المال .

وهذه حال نبيه سلامه في غربته . لا يأبه للمادة ، ولا يطمع في الثروة . ولكنه يبني مجداً من الاخلاص والوطنية ، ويجمع ثروة من الوفاء والمحبة ، ويعيش من اجل فنه ووطنه . وغالباً ما يشكو من ظلم الحياة وقسوتها ، بأنفة وكبرياء ، فيقول :

ما للزمان يجد في ارهاقي
ولى الشباب ولا اطيق غلابا

افنيت عمري والمصائب جمة
ماذا جنيت لا ستحق عذابا ؟

هذا فؤادي للصحاب وقفته
لا يعرف الزلفى ولا يتحابى

ايكون ذنبي ماحملت من الوفا ؟
ويكون من صان الاباء مصابا؟

مازلت اسأل والزمان مماطلي
ودنا المغيب وما سمعت جوابا

هذا غيض من فيض ، وجدول من انهار وبحور ، لاحد كبار شعراء العرب في المهاجر ، عرضته بايجاز للقارى العربي ، كي يتعرف ولو قليلا ، على هذه الفئة المختارة من رواد الادب والشعر في بلاد الاغتراب. هذه النخبة الكريمة التي نذرت حياتها للحفاظ على لغة الضاد في نفوس وقلوب ابناء العروبة المغتربين . وهي لعمري : اعظم رسالة ، وانبل غاية .

السويداء

نعمان حرب

بين الروض والقفر

للشاعر: أحمد حسن فقي

ضحك الروض ساخراً من جديب   في قفار من حوله تترامى !

وهو يزهو بجدول وغدير   كندى المزن .. يطفئان الاواما !

وكروم خضر .. ونخل طوال   حسنا طلعة .. وجادا طعاما !

يجد العاشقوه ماتشتهى النفـ   س .. ويلقون راحة وسلاما !

من ثمار نضيجة وزهور   عاطرات بوردها والخزامى !

وطيور صوادح بلغى الطيـ   ـر .. فيستعذب الهوى الانغاما !

وظلال يرنو إليها هجير   من بعيد .. ولا يطيق اقتحاما !

ذاده الوبل عن حماه وأقصا   ه .. فعاد الهجير يشكو الغماما !

ما أحيلى الرؤى به تخلب اللـ   ب .. وتشقى وتسعد الاحلاما !

* * *

واستدار الهجير للروض غضبا   ن من السخر والشقاء المرير !

قال . ياروض أيها الساخر المعـ   جب بالظل والجنى والعبير !

خل عنك الغرور .. رب جديب   وحرور تعللا باليسير !

واستقاما على الطريقة حتى   أذن الله بالشهي النضير !

رب صوف يشوكنا سوف يغدو   بعد حين ملاءة من حرير !

أنت ياروض بالتفاخر والتيـ   ـه .. بهذى النعماء غير جدير !

لست إلا غرا يباهى بجدوا ٥ .. بيوم من الربيع مطير !
فهو كالطفل ليس يملك ما أعـ ـطى .. إلا ملك الضعيف الصغير !
أنت لا تملك الربيع فحاذر من بلاء العقبى .. وسوء المصير !

* * *

قهقه الروض ساخرا من كلام اللظى الجديب !
قال . هذا هو الهرا ء من الحاسد الحريب !
أكل الحقد قلبه فتهاوى إلى القليب !
نلت بالسعي ما أسر .. وما عز من نصيب !
وسأبقى على المدى رغمه اليانع الرطيب !
وسيبقى .. وما يحو م على جوه الصبيب !
ليس من حظه النسيـ ـم كمن حظه اللهيب !
فامض عنى .. فما أرا ك سوى تاعس سليب !
إمض عنى الى الصخو ر .. إلى حرك المذيب !

* * *

ومضى القفر مايريم . وقد كا د لفرط الشجون يذرى الدموعا !
ورآه الثرى الجديب فواسا ه .. وقد شامه حزيناً جزوعا !
وأتته عواسج وصخور طاويات على هواه الضلوعا !
ضارعات إليه أن يلزم الصبـ ـر .. فقد يكرم القضاء القنوعا !
فاستوى راضيا . وقد كان غضبا ن .. شقيا بحظه .. مفجوعا !
قال . إني من أجلكم قلت ماقلـ ـت .. ومن أجلكم سأطوى القلوعا !
وسأرضى بما يريد قضائي ما أراد القضاء منى الخضوعا !
فلقد يصبح الزمان كريما ثم يغدو لدى المساء منوعا !

فتلاقى الجوعى احتضانا وزادا   وتلاقى الشبعى امتهانا وجوعا !

*   *   *

ودار الفلك الـدوا   ر بالسعد .. وبالنحس !
فلم يبق من الروض الـ   ذي اختال سوى اليبس !
واورق ذلك القفر   واصبح يانع الغرس !
ولم يشمت بروض الامـ   س حين هوى الى الرمس
بلى . قد قال ما أكر   م هذا الدرس من درس !
وواساه . فسال الدمـ   ع ممن ضل في الحدس !
وقال له : رعاك الله   من فكر ومن حس !
لقد أوغلت في طهر   ك .. إذ أوغلت في رجسي !
وقد أوشكت أن أهتـ   ف .. يا أكرم من نفسي !

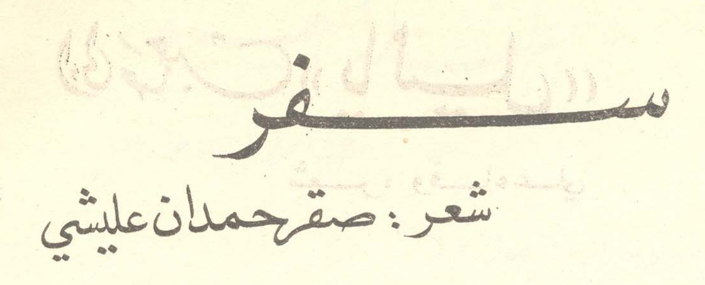
*   *   *

وقلت لنفسي حينما خلت انها   تراودني للغى حيناً .. وللكبر !
ألم تسمعي ؟ قالت بلى وسأستوي   على الدرب بعد اليوم في السر والجهر!
لقد سرت شوطا في الضلالة أو شكت   خطاي به أن تستقر على الجمر
وقد سمعت أذناي أكرم عبرة   من الروض . إذ جافى الهدى . ومن القفر!
وليسا هما مني بأصوب نظرة   الى الخير في عليائه .. والى الشر !
فخذ بيدي عهداً علي بأنني   وإياك لن نسعى الى مربع الخسر !
وكفارة منا كلينا على الذي   مضى في سدور في الخديعة والمكر !

*   *   *

أليست حياة الخلق سفراً سطوره   بها السطر حينا قد يشيح عن السطر ؟!
فيا ليتني سطر يضيء فما يرى   به قارىء إلا الجميل من الذكر !
تركت معاذيري .. فما ثم عاذر   وقد سمعوا الجم الكذوب من العذر !

محمد حسن فقي



سفر

شعر: صقر حمدان عليشي

الى « ندى »

ولي شغف أن أسافر فيك

وأوغل في الغامق الغامض

ولي شغف أن أجيء كرمح

واطعن في صدرك النابض

أنا قادم .. إن يكن ألف نهد

وراء قميصك ، بالرابض

تأهب بي عطش أحمر

إلى الشرب من لونك الحامض

ايوجد يابنت قلب صحيح

بحمى التصاقك لم يمرض ؟ !

إلى صاحب «ياليل»

شعر: وفاء علي

ياصاحب الليل المضمخ بالعبير وبالطيوب

أنا نجمة الحب المضيئة في الشمال .. وفي الجنوب

ضيعت عمري كي أرى ليل المحب بلا غروب

أنا مذ قرأت الليل ارقني ، وأقلقني .. وجيبي

يمتصني ألقاً ، ويوقد في دمي وهج اللهيب

* * *

أيقظت في « ياليل » أشواق الحبيب الى الحبيب

خفقات هذا القلب أم شهقات هذا العندليب ؟

فيه المنى والذكريات ، وفيه هدهدة القلوب !

مرحى لهذا « الليل » يشعل ألف صبح في دروبي ..

وفاء علي

١٩٨٠/١١/٢٩

الطفلة الغيور

للشاعرة هند هارون

« في الذكرى الثالثة السنوية لغياب عمار »

في موكب الشعر الحنون يمر طيف الذكريات
بين العيون ، على الجفون وعبر أنسام الحياة
في ثغر زاهرة تموج على القلوب المرهفات
في دمع ثاكلة تسائلها دموع الامهات
في موقف الكبر العجيب ، يلوح في صمت الاباة

* * *

والذكريات تلح في خلدي
وأرى السرير يئن في جلد
وعليه تنشر ذرة الكبد
وأغيب بين اللغو والرشد
ماعدت أدري .. هل أرى ولدي ؟؟

* * *

لكن غيابك يابني هو الحضور
في الدار في الاسرار في لمح الحبور
في رؤية الاصحاب ... في ومض السطور
في الشاطىء المشتاق .. في الرمل الحرور
كل يحن .. ومهجتي تبغي العبور ..!!
أو لست طفلتك الغيور ؟!

* * *

ألف من الايام والحزن الكبير سحاب يومي
في كل نبض يرتقي حزني الى آلام قومي
والليل يبحث ساهراً عن غفوة ترتاد نومي
ومسيرتي رهن الضياع
وأحسني نفساً تباع
من يشتري ذاك المتاع
ويعيش أوصاب الجياع

* * *

وثالثة بلا زمن من السنوات في وهني
أداريها .. أسامرها وتبقى أنت مؤتمني
أرى في ظلها رغداً بدمع الروح يغمرني

* * *

حديث اليوم لا مذياع ، لارادار ينقله
أسجله لتبقى أنت في الاعماق موئله
وأهتف باسمك المنداح في الآفاق تحمله

ومن نجم الى نجم ، يضيء الحرف مشعله
أرى عمار متقداً ، وقلب الكون منزله

* * *

بالامس كررت الزيارة بين أحضان المساء
ونقلتني للبحر أسبح حيث إعصار الشتاء
وسرحت بي بين المروج ، وكنت لي طفلا براء
لكن منزلج الصخور ، يكاد يرميني افتراء
وتضمني .. تحنو .. تهدهد بين أحضان المساء

* * *

وأفيق حيث « لاجيرة[1] » شدت على قدمي
تفتن في ألمي
لكن من فقد الوحيد
لا .. ليس يوجعه الحديد
لا « جبس » يؤذيه
لا وخز يدميه .. !!

* * *

يا صانعاً مني أساطير الامومه
أبدعت في قلبي أحاسيا حميمه
أبدعت في شعري الحياة
نسغاً بصدر الامهات
بالامس « لامارتين [2] حدثني

وأصخت أسمع في خشوع
عن « جوليا [3] » تلك الصغيره
تلك الاثيره
وتوسدت عيني الدموع ...
ماتت صغيرته بلا وطن ..
وهو الغريب يعيش للمحن
لبنان كان مهادها ودثارها ...
وتساءلت نفسي الحزينه
كم صغيره .. كم كبيره
في ذرى الارز !!
والدماء
حجبت عين السماء
أخجلت لون الضياء
لستُ ثكلى ياسماء
غضب عم التراب
والحراب ...
مزقت صدر الاخاء
والرجاء
عمار قلبي اليوم ينفطر
لزلازل ، لاتبقي .. لاتذر
آلام قومي رهن موجدتي
والعاصفات غبارها البشر
صدري الجراح .. وأنت بلسمها
في السؤال . وعندك الخبر

هند هارون — اللاذقية

---

١ — أصبت بحادث اضطرني الى الجيره .
٢ — شاعر فرنسي .
٣ — ابنة الشاعر التي ماتت في العاشرة في لبنان .

الظل المتواري

شعر: محمد جلال قواس

ماذا أروم وقد حصدت بذاري
والشيب كلل بالوقار هزاري

لو تدرك الايام ما أخفى وما
يطوي الفؤاد بنبضه الهدار

ان تدفن الجمرات في أعماقه
فدمي المتيم ان خبت أوتاري

حلم الشباب وأي حلم قد مضى
غير الحنين وبحة القيثار

أغمدت آهي واستكنت الى الدجى
اصطاد حرفي من رؤى الاسفار

أفتات من خيط الوميض مشاعراً
تحنو علي بهمسة استغفار

أسمو إلى نبضات قلبي حالماً
بالحب ... بالاطيار .. بالازهار

أفنيت عمري باحثاً عن مأمن
مل الشراع شواطىء الإبحار

قد ضقت ذرعاً بالحياة فمن يرى
غيري الحياة مواطن استقرار

حسبي من الايام أني قانع
في الليل ارسم ظلي المتواري

محمد جلال قواس
الجزائر

حسرة عاشق

ابوعطيف

لمحمد سليم عزوز

آه لـوقلبـك يهـواني — لدفنـت جميـع الاحـزان
ومضيت سيوفاً غايتها — أن تقطـع هـام الشيطان
فأنا في شوقي عنترة — يتلظى وهـج النيـران
وخيـالي مـوج يقـذفني — لعوالم دنيـا المرجـان
هـل تعرف نفسك ما أبغي — هـل تـدري أنـك شـطآني
ليلي بعيونك أعشقـه — أكـذا عينـاك أضاعـاني

* * *

أمطـارك تقـرع نافـذتي — فيثـور الشـعر كبركـان
وأحس بطيفـك يسـرقني — ويحطـم كـل الجـدران
ما أقبـل ليـل آنسـتي — وتسجـى السهـد بأجفـاني
إلا وحسبتـك عاصفـة — إعصـار زعـزع اركـاني

* * *

هـل أثمر صدرك ياقمري — قـولي فـدلالـك أعمـاني
سافـرت بعيـداً عـن أرضي — وبحثـت بعـزم الفرسـان
عـن وجـه حلـو يجـذبني — لـم الـق بكل البلـدان
إلا عصفـوراً أسكـرني — واطـال الصمـت فأضنـاني
قـولي أهـواك بـلا خجـل — لاتقفـي وقفـة حيـران
إني من دونك لا أرضـى — أحـداً في الدنيـا يهـواني

محمد سليم عزوز

رسالة رفاعة الطهطاوي
إلى حركة الصحافة العربية

بقلم : زياد كامل

قلة جدا من يعرفون ، من جمهور القراء ، ان رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١ – ١٨٧٣ م) ادى الى حركة الصحافة العربية رسالة هامة في تطورها ودفعها اشواطا طويلة طويلة الى الامام والاطلال بها على افاق رحبة واسعة لم تكن لها من قبل .

والوزر في ذلك يقع على جمهرة الباحثين الذين تجاوزوا هذا الجانب من رسالة رفاعة الحضارية الضخمة التي اداها للاجيال العربية ولحركة النهضة العربية الحديثة ، اذ قصروا ابحاثهم على جوانب معينة لايحيدون عنها حتى باتت بمثابة القاسم المشترك بين دراساتهم وابحاثهم عن رفاعة .

ومن هنا كانت فكرة هذا البحث أو الفصل من دراستنا المطولة عن رفاعة ورسالته لنهضتنا الحديثة علنا نسد به هذه الثغرة الواسعة والفجوة العميقة فيما كتب عن رفاعة من ابحاث وننير به هذا الجانب الهام من رسالة رفاعة لحركة النهضة العربية الحديثة .

الجانب النظري من رسالة رفاعة :

خلال سنوات اقامته بباريس (١٨٢٦ – ١٨٣١ م) كطالب للعلم والمعرفة بها ، عرف الطهطاوي الصحافة الحديثة المعاصرة ، نعم ان مصر قبل هذه الفترة قد عرفت الصحافة ، عرفتها لاول مرة على يد نابليون الذي اصدر صحيفتين فرنسيتين هما (العشار المصري) وهي صحيفة علمية اقتصادية تختص بنشر ابحاث المجمع العلمي ومناقشاته وتصدر كل عشرة أيام ثم (بريد مصر) وهي الصحيفة الرسمية للحملة وتصدر كل اربعة أيام وهناك نشرة صحفية أخرى تولى تحريرها السيد اسماعيل خشاب وهي (سلسلة التاريخ) وهي سجل لمحاضر جلسات الديوان والحوادث الهامة وحاول نابليون ان يصدر نشرة صحفية اخرى باسم (التنبيه) لكنها لم تصدر فعلا ، وهذه الصحف كلها ماتت بخروج الفرنسيين من مصر وسنة ١٨٢٢ اصدر محمد علي صحيفة (جرنال الخديو) وكانت تطبع بمطبعة القلعة بالقاهرة وبمعدل مئة نسخة بالعربية والتركية وتوزع على رجال الدولة وتتضمن اخبار الحكومة وبعضا من قصص الف ليلة وليلة ، وسنة (١٨٢٨) انشأ محمد علي (الوقائع) ولم يك ظهورها منتظما وكانت تقتصر اوتكاد على الاخبار الرسمية أي أنها كانت أقرب ما يكون للجريدة الرسمية بايامنا هذه ، ٢ – وواضح ان هذه الصحف كلها لاتمثل الصحافة الحقة وهي ابعد ما تكون عن المفهوم العصري الحديث للصحافة التي عرفها رفاعة بباريس ، اما صحف مصر تلك فهي اقرب الى النشرات الحكومية منها الى الصحف .

ولهذا راى رفاعة لزاما عليه أن يعرف جمهور القراء بذلك الوقت بالصحافة الحديثة ، والجدير بالذكر أنه كان يطلق على الصحف تسميات تبدو لنا اليوم غريبة غير مأنوسة فيسميها (كازيطات – جرنال – تذاكر يومية – ورقات يومية – الوقائع) ، ٣ – والجدير بالذكر ايضا ان العامة بمصر الى الان يستعملون مصطلح (الجرنال) ، وواضح ان رفاعة عندما يستخدم مصطلح الوقائع ليدل بها على الصحف انما استمده من صحيفة الوقائع المصرية .

يعرف رفاعة الصحافة على النحو الاتي (ومن الاشياء التي يستفيد منها الانسان كثير الفوائد التذاكر اليومية المسماة الجرنالات وهي ورقات تطبع كل يوم وتذكر كل ماوصل اليه علمهم في ذلك اليوم والجرنال الواحد ينطبع منه غالبا للبيع ٢٥ الف نسخة وكل جرنال تكثر نسخة على حسب رغبة الناس) ٤ – والصحف انواع منها السياسية ومنها الادبية ومنها العلمية والى ما هنالك (والجرنالات مختلفة الانواع والاصناف فمنها ماهو لذكر اخبار داخل المملكة وخارجها ومنها ماهو مخصوص بامور المملكة فقط وماهو للمعاملات وما هو للطب ولكل علم على حدة) ٥ – وكل صحيفة بباريس تتبع حزبا أو مذهبا سياسيا « الجرنو عصب ، فكل جماعة لها رأيها في مذهب ، كل يوم تقويه وتحاميه وتؤيده) ٦ – ولكل صحيفة مراسلون ينقلون لها الاخبار (وارباب الجرنو يعرفون الاخبار قبل غيرهم لان لهم مراسلات مع سائر البلدان) ٧ – والصحفيون يعانون ويكابدون في عملهم الكثير الكثير اذ كثيرا ما يتعرضون لضغوط تمارسها عليهم جهات معينة(وهم يتعرضون للمدح والذم والاستحسان والاستقباح والاغراء والتحذير الى غير ذلك)٨ .

والصحافة عند رفاعة ليست فحسب ليعرف المرء منها الاخبار المستجدة بالعالم بل انها وسيلة هامة نشطة وفعالة من وسائل نشر الثقافة والمعرفة (فان الانسان يعرف منها سائر الاخبار المتجددة سواء كانت داخلية أم خارجية ، الا انها تتضمن أخبارا تتشوق نفس الانسان الى العلم بها ، على انها ربما تضمنت مسائل علمية جديدة التحقيق أو تنبيهات مفيدة أو نصائح نافعة) ٩ – والصحافة هي منبر المواطن والمواطنين فمن خلالها يصل صوت كل مواطن الى الاخرين وهي الى ذلك بعرف رفاعة تمثل ما يسميه بعضهم اليوم (بالسلطة الرابعة بالدولة) اذ تأخذ دور الرقيب والحسيب فنعمل على توطيد وتعميق الايجابيات وتشيد بها وتحث الجميع عليها ، وبالوقت عينه تعرى السلبيات وتكشفها للرأي العام وتسعى حثيثة لاستئصالها وتجاوزها كما أنها وسيلة لاحقاق الحق والعدل والانصاف ، انها باختصار تمثل برأي رفاعة ما يصطلح عليه بعضهم بمصطلح (صوت الامة أو الشعب) أو بمصطلح (ضمير المجتمع الحي) قال رفاعة بهذا كله (ومن فوائدها ان الانسان اذا فعل فعلا عظيما أو رديئا وكان من الامور المهمة كتبه أهل الجرنال ليكون معلوماً للخاص والعام كذلك اذا كان الانسان مظلوما من انسان كتب مظلمته بهذه الورقات فيطلع عليها الخاص والعام ويعرف قصة الظالم والمظلوم من غير عدول عما وقع فيها ولاتبديل وتصل الى محل الحكم ويحكم فيها بحسب القوانين المقررة) ١٠ . ثم ان الصحافة وسيلة اعلامية هامة تعود بالنفع على المواطنين (ومن الامور النافعة في التجارات ، الجرنالات ، فيكتبون فيها كثيرا عن البضاعة النافعة والجيدة الصنعة يمدحونها ليروجوا السلع وليعلموا الناس بها وصاحب البضاعة يدفع لها شيئا نظير ذلك) ١١ .

ولعل أهم جانب في رسالة رفاعة الصحفية هو حديثة عن حرية الصحافة والتي تدخل بالطبع ضمن اطار حرية الرأي والتعبير التي أولاها رفاعة من فكره السياسي الاهتمام الاكبر حتى باتت قضية الحريات العامة الشغل الشاغل له في مصنفاته يؤكد عليها ويلح في مؤلف جديد له وبكل كتاب يكرر احاديثه عنها في اكثر من فصل من فصوله ١٢ ، واول ما تعرض رفاعة لحرية الصحافة كان من خلال ترجمته لدستور(١٨١٤) وواضعه لويز الثامن عشر ١٣ ، يقول رفاعة بترجمته للمادة الثامنة من هذا الدستور (لايمنع انسان في فرنسة ان يظهر رأيه وان يكتب ويطبعه بشرط الايضر مافي القانون فاذا اضر ازيل) ١٤ . وواضح تماما ان حرية الرأي ههنا تشمل حرية الصحافة وحرية الرأي وبضمنها حرية الصحافة وتعد عند شيخنا رفاعة واسطة هامة فعالة من وسائط اطراد النمو والتقدم في الدولة وقد عقب رفاعة على النص السابق بقوله (ومن فوائدها انها تقوي كل انسان على ان يظهر رأيه وعلمه وسائر ما يخطر بباله مما لايضر غيره فيعلم الانسان سائر مافي نفس صاحبه خصوصا الورقات اليومية المسمات بالجورنالات أو الكازيطات)١٥ . وفصل رفاعة أكثر فاكثر بحرية الصحافة حيث قال (وهذه الجرنالات مأذون فيها ان تقول مايخطر ببالها وان تستحسن وتستقبح ماتراه حسنا أو قبيحا وان تقول رأيها في تدبير الدولة – سياسة الدولة ، مالم تضر بذلك فانه يحكم عليها وتطلب بين يدي القاضي) ١٦ . ويلاحظ بجلاء ان الحرية التي يعنيها رفاعة في نصوصه السابقة (١٤ – ١٥ – ١٦) هي الحرية المنظمة بالقانون وليست حرية الفوضى والعبثية واللامسؤولية .

لا ان رفاعة مقتنع تماما بحرية الصحافة والتعبير والراي ولهذا اهتم بتبيان ماترتب عن تدخل السلطات الفرنسية بزعامة الملك (شارل العاشر) في فرنسا بحرية الرأي والتعبير والصحافة ، من احداث جسام تمثلت بثورة قوية عارمة سنة (١٨٣٠) اطاحت بالملك

وبحاشيته وعصفت بهم ، فالملك شارل العاشر خرق القانون والدستور بان (اظهر عدة اوامر منها النهي عن ان يظهر انسان رأيه وان يكتبه أو يطبعه بشروط معينة خصوصا للكازيطات اليومية فلا يظهر منها الا ما يريد اظهاره مع ان ذلك ليس حق الملك وحده، فكان لايمكنه عمله الا بقانون والقانون لايصنع الا باجتماع اراء ثلاثة ، رأي الملك وديوان البير ـ مجلس الشيوخ، وديوان رسل المعاملات ـ مجلس النواب ، فصنع وحده مالاينفذ) ١٧ . فالملك باصداره هذه الاوامر انتهك القانون والدستور الذي نص على حرية الرأي والتعبير والصحافة ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى اصدر اوامره الباغية هذه دون موافقة ممثلي الشعب في السلطة التشريعية ، مما يدل على مدى تأصل الروح الديمقراطية في فكر رفاعة ، ونتيجة لهذه الاوامر الجائرة (اخذ الناس في الحركة بقرب المحل المسمى بالرويال يعني السراية السلطانية ، وظهر الغم على وجوه الناس وكان هذا يوم ٢٦ يوليه ويوم ٢٧ منه لم تظهر غالب كازيطات الحرية ـ المناصرة لفكرة الديمقراطية ، لعدم رضائها بالشروط فلذلك بلغت الاوامر جميع الناس وحصلت حركة عظيمة بعدم ظهور الكازيطات التي من عادتها انها لاتفتر عن الظهور الالهم عظيم ، فاغلقت الورشات والمعامل والمدارس ، وظهر وظهر بعض كازيطات الحرية آمرة بعصيان الملك والخروج والخروج عن طاعته) ١٨ . وهكذا كانت عاقبة هذه الاوامر وخيمة على شارل العاشر اذ كانت عاقبتها (خروجهم عليه واخراجهم له من بلادهم معزولا)١٩.

على ان لرفاعة رأيا سلبيا يتحامل فيه على الصحافة والصحفيين الشيء الكثير الكثير فيقول (ولايوجد في الدنيا اكذب من الجرنالات خصوصا عند الفرنسيس ، وبالجملة فكتاب الجرنو اسوأ حالا من الشعراء عند تحاملهم أو محبتهم) ٢٠ ، لكن لاننسى ان رفاعة عرف الصحافة بباريس اكبر معقل للغرب الرأسمالي وصحافتها يملكها القطاع الخاص ، وصحافة القطاع الخاص بمعظمها ، كما عرفناه بالخمسينات في سوريا وكما عرفناها بلبنان ، صحافة غير نزيهة لاتتورع عن اساليب التشهير والابتزاز وهي صحافة (قبض) تبيع نفسها لمن يدفع اكثر لهذا لانلوم رفاعة على رأيه السابق.

الجانب العملي من رسالة رفاعة :

سنة (١٨٤١) اتيح لرفاعة ان يعمل في ميدان الصحافة وان يطبق المناهج الغربية الحديثة في فن الصحافة حيث اسند اليه بهذا العام محمد علي مهمة تحرير الوقائع ، وكانت قبله سجلا للاخبار الحكومية والحوادث المحلية بيد ان عصر ازدهارها الحقيقي شهدته باشراف رفاعة عليها ولعل اكبر دليل على ذلك خطاب بعث به محمد علي الى من كانوا يتولون تحرير الوقائع قبل الطهطاوي يقرعهم على نشر خبر لايليق نشره (لقد اخذنا العجب في درج مثل هذه الحوادث القبيحة، فعليكم من الان فصاعدا ان تدرجوا الحوادث اللائقة بالنشر وتتجنبوا نشر ما لايليق نشره) ٢١ . واخذ محمد علي على ضوء ذلك أن يرى ويدقق بنفسه مسودات الجريدة ويبدي رأيه بها قبل نشرها ٢٢ . وكان رفاعة يتولى تحرير (المواد المناسبة من الجرائد الاجنبية وعلاوة بعض القطع الادبية وترتيب الجريدة المصرية بصفة عامة) ٢٣ على أن أهم ما يلاحظه الباحثون في تطوير رفاعة للوقائع هو ان ازداد الاهتمام بالاخبار الداخلية واصبحت من موادها الرئيسية واصبحت اصول الجريدة بالعربية ولاول مرة بتاريخها بعدما كانت عبارة عن ترجمة للعربية عن اصول تركية ، على ان التطور الاكبر الذي احدثه رفاعة بالوقائع ، كان نشوء المقال الصحفي على يديه الذي هدف منه الى تثقيف وتوعية القارىء بكل مجالات الفكر والثقافة والمعرفة فتراه يتحدث عن السياسة محاولا ان يكون لدى قارئه وعيا سياسيا كافيا لائقا (والان يتسائلون عن احوال الدول داخلية أو خارجية من جهة ادارتها وسياستها ومافيها من توليه وعزل ونحو ذلك وهذا ما يسمى بالبولتيقيا والمتكلم بشأن ذلك يقال له بولتيقي فما كان بين الدول والملل ـ الامم ، يقال له بولتيقيا خارجية وما كان في دولة واحدة مما يتعلق بانتظامها وتدبيرها يقال له بولتيقيا داخلية) ٢٤ . وفي الوقائع حدثنا رفاعة عن سلطات الدولة الثلاث وعن اشكال الحكم بين جمهورية وملكية دستورية مقيدة واخرى مطلقة وعرفنا بمصطلحات الارستقراطية والديمقراطية والمونارخية ، وبرعاية رفاعة ازداد اهتمام الوقائع بالاخبار الخارجية على نحو ما فصل لنا عن ثورة البرتغال انذاك .

وسنة (١٨٧٠) انشئت مجلة روضة المدارس وقد اسند منشئها علي مبارك وزير المعارف انذاك ووزارته تتولى اصدارها والانفاق عليها ، اسند مهمة رئاسة تحريرها للشيخ رفاعة اذ رآه أجدر من يتولى هذا المنصب وقال بذلك (لما كان حضرة رفاعة بك المشار اليه بالبنان بين ارباب المعارف ، والمعترف بدرجة فضله الرفيعة كل انسان ، ناسب ان تكون هذه الصحيفة تحت نظارته لتتحلى من معلوماته بالدر الثمين)٢٥ وصدر رفاعة العدد الاول منها بمقال افتتاحي بين فيه هدفها (بحيث تكون فيها الفوائد

ومتحليا بالموضوعية والصدق والانصاف ، ومستهديا بالثقافة الرشيدة .

وليس النقد الادبي في مفهوم مندور بلاغة عقيمة تتحرى الصياغة اللفظية الجامدة ، وتفترض التقسيمات الشكلية والمحسنات البديعية من جناس وتورية ، بل هو بحث مايصدر عن عفوية الاداء ومزاولة الفن الصحيح الذي يستهدف الصياغة الجمالية ، ومن هذه النظرة الصائبة انطلق ليحد من تأثير كل من قدامة بن جعفر وابي هلال العسكري على الادب العربي ، وسجل عليهما تبعة جفاف ينابيع الادب ، وضياع الاحاسيس والافكار منه ، وغلبة التكلف واللفظية .

وخلاف ذلك فقد نوه بفضل الحسين بن بشر الامدي وشهد له بمنهجيته وموضوعيته ، وقد سبقه الى المقارنة بين بيت شعري واخر ، ومعنى وغيره ، وكشفه الرائع الخطير لاهمية الصياغة في الادب ، اذ يقول الامدي : « ان حسن التأليف وبراعة اللفظ يزيد المعنى المكشوف بهاء وحسنا ورونقا حتى كأنه قد أحدث فيه غرابة لم تكن وزيادة لم تعهد . ويوجد مندور شبها قويا بين هذا القول ورأى معظم نقاد اوروبا اليوم الذين يرون ان امر المعاني في الشعر ثانوي بالنسبة الى الصناعة .

* * *

ومن مؤلفات مندور « في الميزان الجديد » و « نماذج بشرية » و « قضايا في ادبنا الحديث » ، و « الشعر المصري بعد شوقي » و « الادب وفنونه » و « مسرح توفيق الحكيم » و « في الادب والنقد » وكثير غيرها ، ما عدا ترجماته العديدة عن الادب الفرنسي ككتاب « دفاع عن الادب » لجورج ديهاميل « ومنهج البحث الادبي » للانسون .

جاز صاحب « الميزان الجديد » في عمله النقدي ثلاث مراحل : مرحلة النقد التأثري ، مرحلة النقد الوصفي التحليلي ، ومرحلة النقد الايديولوجي الملتزم بالدفاع عن قيم الحق والعدالة والخير والسعادة ، وخاض في سبيل مبادئه وارائه معارك عنيفة مع كثيرين من الكتاب ، امثال العقاد ، وزكي نجيب محمود ، ورشاد رشدي ، ومحمد احمد خلف الله .

وكان الباعث على خوض المعارك الادبية مع العقاد وزكي نجيب محمود ومحمد احمد خلف الله ، ان اولئك الثلاثة خالفوا الدكتور مندور في توكيده على أهمية الذوق وفائدته ، في تفسير الادب وفهم نصوصه ، وجوزوا امكان اخضاع الدراسة الادبية للنظريات والاستنتاجات العلمية وتطبيقاتها ، بديل اعتبار النقد شيئا مستقلا عن كل علم اخر ، والاقتصار منه على تحكيم الذوق . وقد رد صاحب النقد المنهجي على مخالفيه ومناظريه بأن النقد التأثري هو الاساس الذي يجب ان يقوم عليه كل نقد سليم ، واننا لا يمكن ان ندرك القيم الجمالية في الادب بأي تحليل موضوعي ، ولا بأس من تحلي النقد بالروح العلمية من امعان الملاحظة والاخلاص والصدق وعدم المبادرة للتصديق الا بعد الاشتياق وطول المراس ، وحسبنا هنا ان المعرفة العلمية هي التي ينبغي ان ننشد لا التطبيق الالي لمقولات وقواعد سابقة نتحرى عنها في النص المقروء .

* * *

وعبر هذه المعارك المحتدمة عرف مندور قراء بالمصطلحات النقدية ، ونوه بمن انطبع نتاجهم الادبي والفني بخصائصها وميزاتها ، امثال : الواقعية والرمزية والرومانسية والطبيعية والسريالية ، وهلل للشعر المهموس في ادب المهجر ، ووجد فيه السهولة واليسر والبساطة والجمال والعذوبة ، وفضله على الشعر الخطابي التقليدي المحتفل بالمعاني الضخمة والتراكيب القوية ، مما لانستدل معه على الصدق وصحة التجربة الشعرية بالضرورة :

عليك مني السلام
يا أرض اجدادي

ففيك طاب المقام
وطاب انشادي

عشقت فيك السمر
وبهجة النادي

عشقت ضوء القمر
والكوكب الهادي

والليل لما اعتكر
والنهر والوادي

والفجر لما انتشر
بأرض اجدادي

أهوى عيون العسل
أهوى سواقيها

أهوى ثلوج الجبل
ذابت لآليها

سالت كدمع المقل
سبحان مجريها

ضاعت كرمز الامل
بأرض اجدادي

ويعقب ناقدنا المجدد مندور على هذا الشعر بقوله: « انا اخشى ان يكون مصدر مافي اشعارنا من غلظ ضعفا في الحاسة الفنية ، حاسة الاحساس بالجمال، ثم نقصا في القدرة الحقيقية على الحب بمعناه الصحيح، ويزيد هذا الخوف في نفسي وضوحا ما الاحظه من ان شعبنا لايفطن الى شيء اسمه جمال في شجرة أو نهر ، الاحساس بالجمال ذاته لابد ان يوقظه العلم ، ومن هنا ترانا جاهدين الى نقل الثقافة الغربية ان كنا نريد نهضة حقيقية ، وما النهضة الا نوع من الحياة لا افكار تردد أو نظريات تسرد » .

* * *

وشبه هذا ما كتبه حول احدى المجاميع القصصية في تلك المرحلة : « الاصالة ليست في الاغراب ولا في تسمية الاشياء بغير اسمائها ، ولا في تضخيم التوافه ، ولا في التكلف الثقيل المعيب ، انما الاصالة في النفس وموسيقاها ، الاصالة في الطبع واسترساله» .

ومن المفارقات الطريفة في حياة محمد مندور ، انه في الوقت الذي استهدفه معارضوه من الادباء والنقاد بتهمة عزل الادب عن الحياة وعدم وضعه في خدمة الحياة الراهنة ، مع اساءة فهم مراده من الدعوة لتوسيع افق الفكر وارهاف الحس ، كان هو قد اثر الاستقالة من الجامعة ، ليشارك في الحياة العامة ، مشاركة فعالة ، فبرز مناضلا ثوريا وكاتبا تقدميا ومدافعا عن العدالة الاجتماعية وتعرض للحبس والاضطهاد غير مرة ، وكان من الطبيعي ان يتطور اتجاهه التقدمي فيغدو اكثر اهتماما بالمضمون الانساني والقضايا الاجتماعية دون تفريط بالقيم والجمالية .

وقد انتهى محمد مندور الى الايمان بالاشتراكية العملية ،ومذهبها الفني في الادب: الواقعية الاشتراكية. وبدأ يبشر بالواقعية الاشتراكية ، منطلقا من مفهومه الخاص لها . وانعكس ذلك في اعماله النقدية والادبية الاخيرة ، مثلما انعكس ذلك في حياته ، منخرطا في التنظيم السياسي للاتحاد الاشتراكي (الذي كان يؤمن بوحدة الاشتراكية العلمية وتعدد الطرق لتحقيقها والوصل اليها) ، ورئيسا لتحرير مجلة (الشرق) التي كانت تنشر مختارات من الادب السوفيتي والثقافة السوفيتية . وقد انعكس ايمانه بالاشتراكية على نقده في الاونة الاخيرة ، فصار يدعو الى النقد الايديولوجي العلمي الاشتراكي منطلقا من اجتهاداته الخاصة .

صحوة الضمير تواتي فتانا ، بعد فوات الاوان ، فيؤنبه ضميره بعد سماعه نبأ انتحارها ، وكأن النزعة الانسانية لا تصحو من سباتها الا ابان حدوث كارثة ! .

قصة (الورقة المفقودة) :

تختلف هذه القصة عن جميع قصص المجموعة اذ تقترب بتكنيكها الفني من الواقعية ، حيث تلج عالم (الباص) ، أو (الاتوبيس) . هذا العالم الذي يستهوى أقلام العديد من كتاب القصة القصيرة . فمن داخل (الباص) ، يستطيع القاص الغوص في أعماق المجتمع ، والتعرف على شرائحه ، وعرض مشاكله ، التي تمثل مشاكل انساننا المطحون في عالمنا الموار ، والمتخم بالهموم والتناقضات .

القصة عن شاب حديث التخرج ، كان من المفروض أن يتسلم عمله مدرسا ، لكن أوراقه نقصت ورقة واحدة . يصعد (الباص) عائداً الى أمه ، منحشراً وسط الزحام ، مستشعرا ضآلته ، وسط هذا الموكب البشري .. ويصور القاص بأداته الفنية ـ أو آلته التصويرية ـ واقع الحياة داخل (الباص) . ويكفي مثلا لهذا التصوير الواقعي ، أن نقرأ معا هذه العبارات التي تفوهت بها ألسنة راكبي (الباص) ، بما تحمله من دلالات ، وبما ترسمه من صور ساخرة لمجتمع (الباص) ، نابضة بالحركة ، وتضارب الاراء ، ولاذع الكلمات ...

ـ أنحن أسماك معلبة ؟!.

ـ لم هذا التأخير ؟.

ـ أف .. ماهذه الزحمة المقرفة ؟.

ـ هل نحن بهائم ؟.

ـ من لم يعجبه ، فلينزل ويأخذ تاكسي .

ـ لسنا بحاجة الى فلاسفة في هذا الوقت .

ـ صلوا على النبي يا اخوان . اخزوا الشيطان..

ـ أف .. ماهذا ؟. ابتعد عني ياقليل الادب .

ـ هل أنا مسئول عنك ، عندما تحشرين نفسك في هذا الزحام ، بين أفخاذ الرجال !.

ـ شوف .. ستات هذا الزمان .

ـ كل الحق على (الداية) .

خاتمة :

ان نادر السباعي حريص كل الحرص على ابراز مساوىء واقعنا ، الذي يتكالب فيه الناس على جمع المال ، فطغت المادة على غيرها من القيم والاخلاقيات . وحريص على أن يتسامى بأسلوبه ، فيقترب من دائرة الشعر ، بجمله المركزة الموحية ، وكلماته البسيطة المعبـرة ..

وأحب أن أوجـز ملاحظاتي حـول القصص في اثنتـين :

الاولى : أن يتغاضى عن تضمـين القصـة آراءه وخواطره ، ويعطى لشخوصه الفرصة للتعبير من خلال الحدث والسلوك والوصف ، ذلك أجدى وأنفع لفنه القصصي ، ولقيمة هذا الفن الذاتية .

والثانية : أن قصصه في حاجة الى تعميق مفهوم الفكرة ، أو قل هي في حاجة الى مزيد من النضج ، ويتأتى هذا بالابتعاد عن الوصف الشامل ، أو التعبير العـام ، والدخول في دقائق وخصوصيات حيـوات الشخوص ، مع الحفاظ على الخط الدرامي النامي للقصة وخدمته .

ومادامت (أقنعـة من زجاج) هـي مجموعته القصصية الاولى . فاننا نأمل أن نقرأ مجموعاته التالية حيث تتحدد أكثر معالم شخصيـة أديبنـا القاص (نادر السباعي) .

حسني سيد لبيب

ديوان
الولادة الجديدة والصحو
للشاعر احمد دوغان
دراسة : محمد مرتاض - وهران

ذلكم هو اسم الديوان الجديد الذي صدر للشاعر احمد دوغان من سوريا الشقيقة*، بعد دواوينه :

١ - ساهر يرعى النجوم - ١٩٧٢ .

٢ - الخروج من كهف الرماد (شعر مشترك)١٩٧٤

٣ - سمفونية تشرين - ١٩٧٥ .

هذا فضلا عن دواوين ثلاثة له ماتبرح مخطوطة هي :

١ - الابحار والغربة .

٢ - تراتيل للبراعم .

٣ - اوراق من دفتر الغزل .

ان في طليعة ما يلاحظ على شعر الشاعر ، هو انشغاله بهموم الانسان العربي وما يعكر صفوه ويقض مضجعه . فقد اشتملت القصائد التي وردت في الديوان على جانب كبير من هذا ، اضف الى ذلك انه يتميز بالصدق ، لذلك لانلفيه يجنح الى الرمزية الشفافة الا في مواطن قليلة وهذا بديهي بالنسبة لشاعر لايريد ان يموه الحقائق أو يتزلف قربى الى اشخاص ...

ومن الاشياء المهمة في « الولادة الجديدة » ، هي انها ملتزمة شكلا ومضمونا ، وانها لم تأت تبعا لاهواء شخصية خاصة ، ولكن تبعا لما يجب ان يسير عليه الخط السياسي العربي واتجاهاته الحقيقة التي تجمع ولا تفرق ، توحد ولا تشتت ، تؤمن بحق الشعوب وتقرير مصيرها ، وترفض الظلم والاستبداد .. تكفر بالهيمنة وجبروتها ، وتمزق غشاوة واقنعة الاستعمار الجديد والامبريالية .

بداءة بدىء ، انبه بانني لست بصدد دراسة مفصلة لشعر الشاعر ، فان ذلك ما لايمكن له ان يتم في هذه الدراسة المقتضبة العابرة ، وانما مجاله التفصيل المشفوع بالدلائل والبراهين اللاحبة الواضحة التي يجب ان تقنع القارىء .. ولكنني ساقتصر على بعض الخطوات الفكرية التي لاتخلو من نقد دون الاغراق فيه .. باختصار ، ستكون هذه الدراسة بمثابة مداعبة للعبارات والجمل الشعرية ، ورحلة الى عالم النغم .

ولكي تسهل الدراسة ، لامندوحة من تسليط الضوء على شعر الشاعر في ديوانه الجديد ، من خلال محاور ثلاثة نراها اجدر من غيرها بالاهتمام ، وهي :

أ - انشغال الشاعر بهموم الانسان العربي .

---

* طبع بمساعدة اتحاد الكتاب العرب بدمشق - ط ١ - ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م . يقع الديوان في ثلاث وستين صفحة من الحجم الصغير .

ب ـ ذكريات مختلفة وتأملات .

ج ـ عشق وحب .

وبعد ذلك نصل الى كلمة نقدية ، وهي النقطة الاخيرة في هذه الدراسة .

أ ـ انشغال الشاعر بهموم الانسان العربي :

ان الديوان كله يكاد يمشي على وتيرة واحدة ، هي الاهتزازات التي تحرك كيان الامة العربية ، وتقتلع جذورها المهترئة المتآكلة ، لتلقى بها في اعمق اعماق المحيطات ، أو تنشىء على انقاضها بنيانا رصينا متينا لاتزيحه العواصف ولا الاعاصير ، ولا تقلقه الامطار ولا السيول الجارفة .. ولا غرو ، فالشاعر هو نبراس امته ، وهو هاديها الى الطريق الحق حين يكون مستقيما في اتجاهه ، ذا شخصية غير مهزوزة ..

ان العربي المخلص لعروبته ، الوفي لمبادىء امته ، هو الذي لايمكن له ان يتلهى بغير مايدور بخلده ، أو يهيمن على افكاره ، فلا ينشغل من ثمة بالامور الهامشية ويتناسى القضية الاساسية ، فيتغزل ، ويتزلف بالمدح والاطراء المبالغ فيهما . والشاعر في ديوانه هذا لم يك من هذا الصنف الذي المحنا اليه ، وانما كان يتغنى بالمقدرة العربية في الميادين كلها .. يتناغى بالعزم الفولاذي الذي يتوفر عليه كل عربي ، وبالاباء والشيم العربية كما يقول الشاعر في قصيدة : « مواسم الأحزان » :

انا وانت نحن في
محاور الاهداف والمقاومة
ستنزف الدماء من افكارنا
لاننا .. لاننا
لانقبل المساومة .. »

ان مثل هذه الابيات كفيلة بان تضع الشاعر في زمرة المذبين عن وطنهم ، الرافضين لكل انواع الاهانة والمذلة، وطاطاة الرؤوس .. فالقوى مهما كانت ، لاتمس جوهر الانسان ، والبغي مهما تعاظم، لايطفو على سطح العدالة، وتغطية الحق البالج .

ان استعمال الضمائر المنفصلة « انا » ، « انت » ، « نحن » يفيد ان الشاعر لايريد ان تقتصر المقاومة على جزء معين ، أو على جزء واحد من اجزاء الوطن العربي الكبير ، وانما التشارك في الآلام ، والاقتناع بان المصير الواحد لامتنا يجمعنا ، وان الآمال والاماني والسراء والضراء اشياء نشترك فيها ، هي التي تجعل وطننا العربي الكبير حقيقة لاخيالا ، وواقعا لامستحيلا .

واذا كان الانسان عادة يتأثر بالنكبات العظام ، وينهزم للكوارث الضخام ، فانه سرعان ما ينهض من كبوته ، وينتصب قويا صارخا في بنات الدهر : هاندا!. وهذا ما يوميء اليه الشاعر في قوله من القصيدة نفسها :

لاننا نروض الآلام في ايامنا
ونمضغ الصبار في حلوقنا
ونعصر الدفلى من الزمان
ونترع الكؤوس في شراهة ..
المشتاق للكروم
كطفلة تحب ثدى امها الرؤوم
من اجل ان نبقى
وتبقى الكبرياء .

حسب الانسان تعودا على الآلام والاحزان ان يالفها، ويانس بها ، فتغدو لديه جزءا من ايامه .. ان بعض الناس يرى ان الحياة الخالية من اللذة والمرح لاقيمة لها ، ولكننا كيف نفصل عمر الانسان عن بعضه بعضا، او نجزئه تجزيئات مختلفة ؟... ثم اذا نحن تناسينا الآلام ، فاننا لن نظفر بالسعادة ابدا ... والا ، كيف يتناسى العرب مآسيهم واحنهم المختلفة مع العدو الصهيوني والرجعية العربية الخائنة ، ومؤازرة الامبريالية للظلم والبغي في العالم ؟.. ان الذي ينسى كل هذا لهو ارعن او احمق ، قد فقد الكرامة الانسانية ، وانضاف الى حثالة البشرية .!

ان استعمال لفظتى « الصبار » و « الدفلى » ، ثم وصفهما بان المرء يتوق اليهما في تطلع كبير ، كما يقبل الطفل على ثدى امه بنهم وعناق لامثيل لهما . ان هذا الوصف ليس جزافا ، ولكن « من اجل ان نبقى، وتبقى الكبرياء » .. فالعربي ليس مخيرا . واذا كان لامناص من الموت ، فلماذا نموت تحت حبل المشنقة ، ونحن خانعون مستكينون ذليلون ؟.. ان البهيمة تقاوم بكل ما اوتيت من قوة ، حين تدلف منها السكين ، فما بال الانسان يسلم عنقه للذبح ، واطرافه للرصف والغل من غير ان يقوم باية حركة !.

ويقول الشاعر في قصيدة : « قراءة في ابجدية حلب » :

واطل على القلعة انظر عبر رياح
الامس

فارى الروم ... الفرس ... تتار الشرق
الكل غزاة .
وتظل المئذنة تكبر ..

طبيعي ان الشاعر لايريد في هذه الايماءة الا الاستعمار القديم الذي حاول ان يتسلط بجبروته وطغيانه على قلعة حلب ، فما افلح !..

ويقول في المقطع التالي :

جهلت ذاكرتي
هل قرأت عن سيف الدولة والمتنبي .
هل عرف الحمدانيون حصارا طروادیا ... ؟
هل كان حزيران يلوح بالمهماز ؟...
يشير اليهم بالنكسة .
ينظر سيف الدولة . يسقط مغشيا .
ويفر الاخر ... يلقي في « مصر » رحالة ؟!!

ان هذه القلعة المنيعة ظلت طوال التاريخ القديم حصنا منيعا للمجد والاباء العربيين . لذلك لم يفلح الروم ولا غير الروم في الهناء بالعيش فيها ، بعد أن كان لسيف الدولة الكلمة النهائية ، وللمجد العربي الظفر والغلبة ..

ويقول في قصيدة « اللحن القادم من اعماق الصحراء » :

وطني .. واخذتك ملء يدي .
وقرأتك حبا في عيني .
علمت فؤادي كيف يكون الحب .

ان كلمة « الوطن » طيبة الذكر ، رائعة اللفظ ، سامية المعنى .. كل من في الوجود يحب وطنه ، وكل من خلقه الله على وجه البسيطة يمشي في مناكبها ، يعمل على ان يكون له وطن . حتى الهوام تهيم حبا وتغرق الى اذقانها في الصبابة باجحارها وكهوفها المظلمة ، لدرجة انها تؤثر الحرق والاختناق دخانا من غير ان تقبل ترك المأوى الاول ... بل ان كل ما في الوطن ومن فيه حبيب الى النفس ، غال على القلب ، يعز على المرء ان يسلم فيه بسهولة ، هذا ان كان الوطن محررا سعيدا ، يهنأ باطايب الحياة ، ويحيا في سعادة تامة .. فكيف يكون حال وطن قد فقد نعمة الحرية ، وسلب كرامة المحتدم ، كما يحدث بالنسبة لاشقائنا الفلسطينيين ، وبعض دول المشرق والمغرب العربيين ؟

يرسل الوانا قزحية .
يتكلم لغة عربية .
حتى تتوحد ياوطني ،
وتجيد نشيد الحرية .
تنطلق الوحدة شامخة الرأس ابية .

نكتفي بهذه الشذرات من القصائد التي تعبر عن الافكار التي اوردها الشاعر بشأن الوطنية والعروبة ، والثورة على المستعمر بشكلية القدم والجديد ، لننتقل الى النقطة الثانية من هذه الدراسة :

ب ـ ذكريات مختلفة وتاملات :

ان الحديث عن أيام الصبا والقصف واللهو ، ليس حديثا عاديا ولا عابرا ، ولكنه ذو شجون مختلفة ، ومسالك متنوعة ، لاينتهي الانسان من آخر اولها ، حتى يشرع في مفتتح ثانيها .. من منا ليس له مايحيه عن ايامه الغر الغوالي ؟. والشاعر اكثر إحساسا واصدق تعبيرا من غيره ، لان ذاكرته تظل محفورة بالمآسي والافراح ، حتى اذا رام التعبير عنها ، كان صدوقا مبدعا ، وذلكم مالم يشذ عنه الشاعر احمد دوغان ، وان كان يختلف في بعض المناحي عن غيره ، حيث ان تأملاته لم ترد متحدثة عن ماض شقي او سعيد ، ولا عن حب ناجح أو مخفق وحسب ، ولكن قد ورد الى جانب ذلك بعض التأملات الثورية ، كما سيتضح في حينه ..

ولنبدأ بالذكريات ، وليكن ذلك بقصيدة « خماسية يقول الشاعر في القصيدة نفسها :

ياسيف الامس أراك أتيت من القدس .
لكنك محزون .
يحملك الفارس في حطين .
فتعود اليك القوة .. تجتاح ملوك الطاعون .

ان الشاعر يريد ان يقضي على دسائس الخيانة واوكار الفساد في كل مكان ، فالوطن لن يكون وطنا سالما من الامراض والرذائل ، قويا متينا حصينا منيعا، مالم يكن قد حطم كل مظاهر الدنس ، والتملق الى الى الدول الرجعية « فتعود اليك القوة .. تجتاح ملوك الطاعون » .

ثم يأمل الشاعر في الافضل ، ويتمنى الاحسن ، لان ثقته في رجال الوطن كبيرة ، والمارد العربي لابد ان يعود من جديد كما كان . وعندئذ ، لن يكون هناك غير وحدة عربية شاملة ، بعد ما تساح الدماء من جديد، وتعم التضحية كل جزء من اجزاء هذا الوطن العربي الكبير ، من المحيط الى الخليج :

وتحرك شيء تحت رماد الصمت .
وانسل السيف بحد ناري .
يقدح شررا .

الحلم والذاكرة » حيث يقول الشاعر :

هذه ذاكرتي تركض خلف الامنيات
تنظر السحب .. تغني للحياة .
تتهادى بين طوفان الرعاة .

ان الشاعر في المقطع الاول من خماسيته هذه ، يحاول أن يعبر عما يختلج في ذهن الانسان عادة ، وعما يعتمل بخلده باستمرار ... فهو لايفتر عن التفكير في ذكريات الماضي ، حتى يجره هذا التخيل الى عالم آخر ابعد عنه بكثير كثير .. انه يطوى آلاف الكليلومترات في ثانية ، ويحيا ايامه الماضية في سرعة عجيبة ، كما ينصب من نفسه رئيسا وقائدا ، وقد يحاكم الآخرين أو يفخر عليهم ، لذلك يصف الشاعر هذه الذاكرة بانها « تركض خلف الامنيات » .

بيد أن الذاكرة مهما تحاول أن تذكر ، فانها بلاريب لاتزيد عن كونها لحظات تأمل ، ودقائق عابرة ، سرعان ماتفضحها الحقيقة ، وتزيل تخيلاتها اضواء الواقع التي لاترحم .. وحينئذ ، فقط ، تشعر ان ماتؤمله دون ان تعمل على تحقيقه بالجد ، وباخراجه الى الواقع ، ما هو الا اضباب ماض ، وهذا ما يدركه الشاعر في مختتم الخماسية ، حيث يقول عنها :

قد توارت خلف اكوام الغيوم
هذه ذاكرتي تهوى النجوم
....
تكفهر النفس حزنا
يسقط الثلج غزيرا في فصول الذكريات .

وبعد ان رافقنا الشاعر في ذكرياته الحالمة ، نقوم باطلالة على صفحة تاملاته ، فنجده يقول في قصيدة « السفر وصرخة الرياح » :

مسافر تمدني الرياح بالمغامرة
وترقص الشمس في مواكب الرحيل
تعانق الغروب والاصيل
وترفض الاحلام في ..
معاقل المحاصرة ..!

انها لحظات تأملية ، شبيهة بتلك الوقفة التي وقفها (فيكتور هيجو) وخليل مطران ، وهما يرقبان الشمس تميل الى العرج .. والواقع ان تأملات الشاعر الرائعة لاتظهر جلية في هذا المقطع الذي اوردناه ، وانما في المقاطع التالية للقصيدة ، حين يقول :

وانني ارافق الشموس في رحيلها
مودعا زماننا المقهور .
مخلفا ورائي الرعود .

هي اذن ، مرافقات ، ومصاحبات للشاعر مع الطبيعة التي انغمس فيها ، ففدت لديه شحنة قوية ، تمده بالمعونة والقوة ، وتجذبه نحوها فيهيم بها صبابة، ويتقد بها اوارا الى درجة التشبث ، خشية الافلات عليها من بين يديه ، وما ذلك الا لان الشمس رمز للقوة والتعاظم ، وهي بالتالي تعبير عن قوة خارقة ، لايمكن لها ان تخضع لارادة الطغاة او البغاة ، وبذلك يسمو الشاعر الى العلا ، ويذر وراءه الاهانة والاستكانة. وفي الآن ذاته ، يحدث دويا وانفجارات عدة ، بما يخلفه وراءه من صواعق محرقة ، وشهب نارية ماحقة ...

ويقول في القصيدة نفسها :

حنجرتي تصعد الولادة الجديدة .
ورحلتي تستقبل الضياء .
حقيقة اقولها :
ولادة الانسان في الحياة ..
يختارها الجنين ..!!

وفي هذه الابيات الاخيرة ، نشعر بنوع من الغموض يسود فكرتها الاجمالية ، وذلك بسبب مبالغة الشاعر في تأملاته ، واضفاء معان اكبر على الالفاظ التي يشعر القارىء انها تنوء بحملها ، وتحاول الافلات من المضايقات التي كادت تخنقها :

« حنجرتي تصعد الولادة الجديدة »

كما ان خاتمة القصيدة يهيمن عليها التسليم بالقدر، وأن الانسان لاارادة له في خلقه ولا في صفاته .. فالتحديد الزماني والمكاني مرهون بما يختاره الجنين .. على ان هذا التسليم بالقدر ، اذا اخذ بمعنى اوسع ، تجلى ان الشاعر اراد به انه بداية لكل ما يحدث من انتفاضات وثورات ، ويتضح ذلك في ربط « الولادة الجديدة ... ولادة الانسان » ببعضهما بعضا ... ثم ان هذه الولادة جاءت بعد زمجرة الرياح ، وقصف الرعود ، ووابل المطر .. وفي كل ذلك كنايات لاتغرب عن بال اللبيب .. فالاستقلال لايتحقق الا بعد مشقة وعسر ، لذلك يحق ان تكون الفرحة فيه عارمة ، والبسمة عريضة ، تماما كالولادة التي لاتتم الا بعد ان

يضني المرأة الاجهاد ، وينهكها التعب والالم ...

وهناك اشارة لامناص من التنويه بها ، وهي ان الشاعر حتى في تاملاته وذكرياته ، لايريد ان يكون بعيدا عن الهموم الانسانية في الوطن العربي ، ولا يحب ان تكون تفكيراته مجرد تخمينات وهواجس شخصية لامعنى لها ، كما يحلم الانسان العادي او يفكر ، ولكن هو يريد ان تكون ايامه كلها مليئة بالتفكير الجاد الذي ينفع المجتمع ، ويجدي في النهوض بالحياة ، يقول في قصيدة « مواني‌ء الاحلام » :

« ... واسال الغيوم والسماء
عن قصة الآلام والهموم
ولهفتي اغاثة النداء ..! »

فهدف الشاعر اذن ، هو الغوث ، والاستجابة للنداء ، المكلومين من قساوة الطغيان ، والمهانين بخسف الاستعمار ... وسرعان ماتشده الحيرة ، وتعجزه الحيلة ، على الرغم من استعداده للتضحية ، واسترخاصه الموت في سبيل أن يحيا الانسان العربي حياة أغنى ، فان أمانيه لاتحقق وآماله تتلاشى بسرعة عجيبة خارقة :

وتعجز الامطار عن اجابتي
تحولت عن وجهتي
يظلها الكسوف في محاجر الانواء
والسموم .

على أن عدم الاستجابة لاينال من عزيمة الشاعر ولا من قوته ، لذلك ينظر الى الامطار نظرة تفاؤلية ، طالما قد عقبت الجو بأريج قطراتها ، وطبعت عليه مسحة من بياضها . كما ان الثلج فيها قد عانق النقاء، وقبل البراءة . وذلك من شأنه أن يعوضه عمالحقه من حزن وكمد سابقين :

وتقطع الاجواء في وجوم
لكنها تعمر الوجود بالبياض
وترفض السواد
فالثلج في مواني‌ء الطيوف
يقبل البراءة
ويعشق النقاء

وفي مختتم القصيدة نلفي الشاعر وقد أفتتح بأن التفكير في التغيير ، والضيق بالظلم ، يؤديان حتما الى الخلاص . فدموع الايامى،وبكاء اليتامى،والم الشيوخ، وعذاب الضعاف ، كل أولئك يقود الى نهاية لاتحمد عقباها بالنسبة للطاغي .. ويموت بعض من جيل أو جيل كله ، ولكن يخلفه آخر في تسلم المشعل ، فيدرك مبتغاه ، ويصل الى هدفه ، فالعبرات والظلام شيئان لايمكن لهما أن يستمرا ، أو يقفا حائلا دون الزحف الكبير . والسيل الجارف حين يشتد سيلانه ، يذهب بكل ما يلفيه في طريقه .. وهذه كلها رموز لقيام ثورة ما وما تخلفه عادة من مآس وآلام . ولكن النتيجة تكون أخيرا في صالح الشعوب ، والانتصار يتحقق في النهاية للمظلومين المستضعفين .

ج ـ عشق وحب :

الحب : تلك الكلمة الازلية الخالدة . من ذا الذي لم يتغن بها ؟ ومن الذي لم يطرب وتهتز معاطفها عندما يفلح يوما فيتنعم بسماعها ، ويلاحظ نتيجتها ، ويجني ثمارها ... ان أجمل مافي الحب ، هو أن لاسلطة للبشر عليه كالاشياء المادية الاخرى ... انه العالم العلوي الذي يتوق اليه المعذب ، ويحن الى العيش فيه البئيس الشقي ، ولا يبغي به الذي يحيا فيه عوضا أو بديلا ، فيظل متشبثا به ، عاضا عليه بالنواجذ . وشاعرنا أحمد دوغان لم يك بدعا من البشر عامة والشعراء خاصة ، حيث نجده قد تحدث عن وجهة نظره في الحب ، يقول في قصيدة « أنت يمامة صدري »

من يعرف أنك تحتملين هذا الانسان
.. ولا يأتيك الحزن
... وأعلم نفسي كيف يكون زمان العشق
زمان القبل الودية
أتشهى أن أحتضن العالم عشقا
حبا أبديا ...!

ان فهم الشاعر للحب ، يتجاوز التقليد الذي طالما غرق في بحره كثيرون فهموا انه مجرد توله بالمراة ،وتوره من جسمها الشفاف اللطيف ، ولكنه حب كبير يسع العالم كله بلا استثناء ... ولا غرو في ذلك ، طالما عرفنا أن المحب يكون واسع الصدر ، رحب الافق ، لايفرق بين هذا وذاك ، بل الحب عنده واحد ، وخاصة ان كان الامر يتعلق بالاطفال ، لذلك يقول :

أتمنى أن أغرق يوما
في أحداق الاطفال
حتى أكتشف ماسر براءتهم ..!

ونظرة الشاعر الى الحب الذي يتجسد في من يهوى ، يراه ، كما يراه الاخرون : ربيعا متجددا ، وفصلا مخضوضراً . فهو ينبوع الحياة ، وسر الوجود :

مهما كنت فأنت ربيع
يتجدد في أوراقي ..
في ايامي ...

انها النهاية الرائعة الساحرة التي يرتاح اليها الخاطر ، ويحس بهمها ونعيمها كل انسان له ذوق غير مريض ، واحساس شفاف برقة الجمال ... ويقول في قصيدة « موعدنا كان مساء »

تعودين حسي
تعودين فكري وروحي .
تعيشين نفسي ، صفائي ، وجرحي .
... كأنك في نبض قلبي .
كذلك في زمن الحب عمري .

أي شيء أجمل من ذكرى دافئة تعود على صاحبها فيحن الى أيامه الخوالي ، ويذكر سعادته السالفة ، فيحاول من ثمة أن يربط بين ماض ، سلف وبين حاضر معاش ؟! وكثيرا مايقارن بين زمانيه ، فيتجلى له سخفه ، وتتضح أوهامه ، فيضحك من نفسه ، ولكن هذا الضحك الذي يشبه الهزؤ ، يجعله يتنسم أريجا عطرا من شجرة الذكريات المورقة أبدا في وليجته ، المحفورة في دخيلته ، حتى لكأنها في نبض قلبه ، وكأنها يوم أن كان متيما بها ، مشغوفا بجمالها، عمره كله ... والحديث عن الماضي السعيد ، وسرد الذكريات الجميلة من دأب الشعراء جميعا ، وخصوصا الرومانسيين** منهم ، في هذا المضمار ، لذلك فان الشاعر يعيد قصة غرامه في قوله :

أقص عليك رواية ماض عرفنا هواه .
تقصين ... أسمع حلو الحديث .
ونجوى مناه .

ان الانسان كثيرا ما يحب حبا عابرا أو يتأثر تأثرا جزئيا أو كليا ، ويهفو فؤاده الى التي يهواها ، ولكن القدر يأبى الا أن يمنحه واحدة أخرى غير التي جنح اليها جنانه من قبل ... فيرضخ مكرها من غير أن ينسى من تفتحت عليها حناياه لاول مرة ، فيظل يغنى لها في سريرة نفسه ، وينشد لها في أعماق قلبه دون أن يتجرأ على كشف ذلك علنا . والشاعر يعبر عن ذلك اصدق تعبير في الابيات التالية ، وأدعها للقارىء يجلى فيها الظرف والفكر من غير أن أفسدها عليه بتعليقي :

افتح عيني أرنو اليك ..
فتأتي الي الغيوم ،
وتأتين غيثا .. كما كنت أهوى .
ولكن بلا موعد .
حسب عفو القضاء .
... وأحلم أنك قربي
تغنين لي والدموع غزيرة
تقولين لي ماكفاني العذاب المعنى
كفتني الهموم المريرة ..!
فأين المواعيد أين هواك ؟؟..

ويسجل الشاعر اللقاءات الاولى للشطحات الغرامية التي كثيرا ما تبدأ بالاطلالة من الشرفات على أوجه المحبين ، ويتجاوز ذلك عادة الى بعض الايماءات بالرأس ، أو الاشارات الخفيفة باليد :

تصور ، وأنت تمر وتلقي السلام .
وشرفة عهدي ترد الجواب هيام
أحقا نسيت ، وكان هواي طلا .؟؟

إنها الاسئلة المحيرة التي تلقى عادة دون أن تظفر بجواب شاف فيضطر صاحبها الى سح الدموع معنويا أو واقعيا ، ثم يستسلم الى القدر ، ويرضى بمحصوله الضئيل في عمره الطويل ، المليء بالمشاكل والعنت والضنى :

فأصحو .. وتأتي الي المواعيد خضرا .
وأنظر خلفي .. أعد السنين .
فأبكي .. وأبكي ..
ولا من شفاء

ان الشعراء المعاصرين ، لا يميلون عادة الى هذا الموضوع الازلي ، موضوع الحب والهيام ، لانه باتفاق جل النقاد ، قد قتل بحثا وفصل فيه القول ، واجتر فيه الحديث ، مما لم تعد معه نتيجة أن يمضي الشاعر المحدث في النسيج على منوال القدامى ، واقتناء آثارهم ... لذلك لم يقل شاعرنا أحمد دوغان أكثر من هذا الذي اشرت اليه في الحب

** كابن زيدون الذي تعد قصيدته النونية في ولادة من خير ما يستشهد به .

أو الغزل ، وصرف اهتماماته نحو قضايا أخر شاملة وأكثر اتصالا بهواجس الانسان العربي وبآلامه وأحلامه ..:

كلمة نقدية

ان العيب الذي يوجه الى الشاعر المعاصر ، يكمن بالدرجة الاولى في الغموض الفكري والتصويري . واستطيع القول بكل اطمئنان ان الشاعر أحمد دوغان شذ عن هذه القاعدة التي أفسدت الشعر العربي أكثر مما أصلحته . فالرمزية أو الصورة لاتعنيان البتة الغلو المطلق . أو الذهاب بعيداً الى ماوراء الواقع ، حتى يعسر على الاريب فهم مايقول هذا الشاعر أو ذاك ...

وقضية الغموض في الشعر الحديث مجمع عليها ، ولم تشفع مزاعم هؤلاء ، في أن الشعر فن راق ، ولا بد للفكر من أن يرقى مثله حتى يكون متوازيا معه ... الاهم أن شعر أحمد دوغان ، كان في مجمله مفهوما واضحا ، واستطاع أن يجسم الصور أو الرموز التي استخدمها مما يقوم دليلا على أنه متمكن من فنه ، ممسك بناصية شعره ، لان الابهام أو الغموض يعود في واقع الامر الى غموض الفكرة وضحالتها في مخيلة شاعر ما .

وفيما يلي بعض الوقفات النقدية عند شعره ، لتتضح معالم هذه الدراسة أكثر .

١ ـ البنية الفنية

نريد بالبنية الفنية ما تعود النقاد أن يطلقوا عليه مذهب الشاعر الفني . ذلك أن أغلب قصائد هذا الديوان مجموعة واحدة متماسكة (انظر على سبيل المثال قصيدة : خماسية الحلم والذاكرة » فهذه على الرغم من ترقيماتها الداخلية التي لا أميل اليها ، على أساس أن الفن وحدة متماسكة لاتتجزأ فانها قد وردت على نغم واحد مسترسل . والملاحظ أن ترقيمات الشاعر جاءت لتوضح الاجزاء فحسب ، لان القصيدة عبارة عن خماسية .

٢ ـ الربط بالجملة المكررة

« هذه ذاكرتي » جملةتعريضيةاشارية وانتباهية.. والذاكرة وان كانت شيئا مجازيا ، فقد حول الشاعر هذا المبهم الى وضوح ، أنزله من العالم العلوي الى الارضي ، ليكون بذلك في متناول القارىء حتى يشركه في تفكيره وتصوراته .

ثم بعد ذلك يستعمل الافعال التي تدل على الحالية أو الزمانية المتصلة باستقبال .

(تركض ... تنظر ... تغني ... تتهادى ... يتلاشى ... تصحو ... تنادي ....) .

فهذه الافعال تكسب القصيدة نفما متحدا متصلا لا يفصل بينه فاصل . وحسن استعمال الافعال عند الشاعر ، لا ينحصر في هذا القصيد وحده ، ولكن يتعداه الى قصيدة « موعدنا كان مساء » :

(تعودين ... تعيشين ... تروح ... تجيء ... فسأحيا ... أعدو ...)

أقص عليك رواية ماض عرفنا هواه
تقصين .. أسمع حلو الحديث
ونجوى مناه

ليس من الفضلة في الحديث ، أن أوكد بأن الشاعر مغرم بالافعال ،وشدة كلفه لم تحلدون حسناستعماله لها في مواطنها ، لتكون شديدة الالتصاق بحسه وفكره. انه يوظفها زمانيا ومكانيا ، وآنيا ومستقبلا كما أسلفت القول . وفيما يلي نموذج آخر لذلك :

وتسقط بعض النجوم
وتهطل بعض الغيوم
وينتصب القوس لونا غريبا
كلون الفرح
ويعلو .. يوازي ارتفاع قزح .
أحدق فيه .. أعيد الرنو .. أراك .
تطوفين دنيا .. !
أدور مع القوس .. أفنى .
فأسمع رعدا ..
أفتح عيني أرنو اليك ..
فتأتي الي الغيوم .
وتأتين غيثا .. كما كنت أهوى .
ادور ، أدور ، واسقط مضنى .
يسود هواي العياء .

وأحلم انك قـربـي .
تغنـين لي ، والدموع غزيـره .
تقولـين لي ماكفاني العـذاب المعنى .
كفنتني الهمـوم المريـرة .

ويمضي الشاعر في هذا القصيد ، موظفا أفعـالا لاغراض شتى :

(عرفتـك .. يطل ... يحب ... تغيرت ... رأيت ... تغيب ... تنسى ... يصيب ... تصور ... تمر .... وتلقـى ... ترد ... نسيت ... فأصحـو ... وتأتي ... وانظـر ... أهـ أعـد ... فأبكـي ... وأبكـي) .

وفي قصيدة « في دروب الصباح » مثل آخر شاهد على أن الشاعر لايفارق توظيف الافعـال :

(تعودت ... وكنت ... ما كنت ... رأيت ... تفص ... تعيش ... دخلت ... قرات ... خرجت ... أحب ... أسعى ... يخوض).

والخلاصة ان أغلب قصائده مشحونة بمثل هذه الافعـال الموحية كقصائد « حكاية العرافة » ، «مواسم الاحـزان » ، « مواني‌ء الاحلام » .

وهذا الكلف بالتوظيفات الزمانية المختلفة لقصيدة واحدة ، يذكرنا ببعض الشعراء الكلاسيكيين المتازين، كزهير بن أبي سلمى في بعض قصائده .(١)

٣ ـ لعبة الالوان

بعد القراءة المتأنية للديوان ، يتجلى بينا أن الشاعر استعمل أغلب الالوان المادية المألوفة بكل مافي الكلمة من معنى . والمراد بالالوان هنا ، ليس ما يحتال له الشعراء عادة من تلوين شعرهم أمثال فقيد الشعر الجزائري المرحوم محمد العيد في قصيدة « الريف »(٢) أو الامير عبد القادر في قصيدة « البدو والحضر »(٣) وغيرهما ، وانما التلوين عند الشاعر صريح واضح ، تماما كما هو الحال بالقياس الى الرسام . وغني عن التفصيل أن نوضح ماتقوم به هذه الالوان من وظائف لاتنكر ، لانها مثل الجملة المكرورة ، تساعد على الفهم ، وتجسم الشيء أمام ناظري القاريء فتقدمه له واضحا صريحا، مع ملاحظة أن لون الشاعر لايكون واضحا مثل لون الرسام ، ولكنه يستشف من خلال الكلمات التي تدس بين جملة وأخرى ، كقول الشاعر :

(السحب ، الغيث ، الضياء ، النجوم ، الضباب، الظلام ، الظلال ، الصبار ، الدفلى ، الكروم ، الثلج ، العناب نباتا بريا ، الشجر الطالع) .

ومما تجدر الاشارة اليه ، أن بعض الالوان وردت صريحة مثل قوله :

ـ « السـواد » : رمز لنهاية الانسان المحتومة ، وللحزن الذي يخيم على البائسين والكادحين من البشر.

ـ « الطـلاء » : بمثابة الالوان المختلفة التي تضفي على البيوتات جمالا وفتنة .

ـ « المرايا » : بما تتوفر عليه من ضياء ثاقب ، وما تتمتع به من لمعان ، يستعملها الشاعر للخير ، والفرح ، والبهجة .

ـ « البيـاض » : للصفاء والنقاوة والطهر (كما استعمله الشاعر) .

ـ « الاخضر » : رمز للانعتاق والحرية والانطلاق اللاون الاخضر يمنحني السير (ص ٥١) .

ـ « اللون الاحمر » : رمز للخـوف والضغط والمنع والقيد لكن اللون الاحمر يوقفني (ص ٥١) .

هذا بالاضافة الى ميلـه لاستعمال رموز لعمر الانسان ، على غرار جبران خليل جبران في تصورات

---

١ ـ انظر على الاخص قصيدة : (وغيث‌من‌الوسمى) والتي‌مطلعها:
صحا القاب عن سلمى وأقصر باطله وعرى أفراس الصبا ورواحله (ص ١٢٤) ديوانه ـ شرح ثعلب ـ الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٣٣٤ هـ ـ ١٩٦٩ م .

١ ـ مطلعها : أقم هنيئا فما في القلب موجدة ونم قريرا فما بالعـين أراق
ديوانه ـ الشركة الوطنية الجزائرية للنشر والتوزيع ـ مطبعةالبعث ـ قسنطينة ١٩٦٧ . (من ٥٦)

٢ ـ مطلعها : ياعاذرا لامرىء قد هام في الحضر . وعاذلا لمحب البـدو والقفـر
انظر : ديوانه ـ ص ٤٤ ـ ٥٠ ـ شرح وتحقيق : د. ممدوح حقي دار اليقظة العربية ـ بيروت ـ ط عام ١٩٧٥ .

للخريف ، ويوسف غصوب في حديثه عن أوراق الخريف، اقرأ قوله يعبر عن عمر الانسان :

وعمرنا مزاوج كما الشجر
خريفه بلا زهر
ربيعه فلة جميلة
ولوحة مرسومة ..
يصدر عنها وجه القمر .
وصيفنا رمضاؤه مخيفة .
فيها الشرر .
كأننا في رحلة الفصول
كدمية مخادعة ...

على أن المحمود هو ان الشاعر لم يبالغ في استعمال هذه الالوان ، حتى غدت مبتذلة ، ولكنه لجأ اليها عند رأى أنها ضرورية لتوضيح فكرة ، أو للايحاء بمعنى ما.

٤ ـ الصور الشعرية

ان الصورة في أغلب قصائد الشاعر ، تتحاشى المنطقية ـ كما عبر عنها القدامى ـ او الذهنية بالمعنى المعاصر . ولم يلجأ الشاعر لذلك الا في حالات جد نادرة، مما جعل شعره مستساغا ، ومعانيه واضحة جلية . وهو بذلك يكذب الذين ضاقت آفاقهم من الشعراء ، فلم يحسنوا التعبير عن خوالجهم وأحاسيسهم المختلفة بصورة جلية رائعة ... وحين يستفسرون عن هذا الغموض يجيبون في سذاجة ، بأن الشعر فن طبقة خاصة لابد أن ترقى في فكرها حتى تصل الى قمة التفكير عند الشاعر .

اننا لانريد أن نعيد ما قاله أكثر من ناقد لتسفيه هذا المنطق الاعرج ، ونحب فقط أن نركز اهتمامنا على فن الشاعر ، فنؤكد صادقين ، بأن صورته الشعرية في معظمها غير مركبة .

ـ الجمل قصيرة : في غالبها ذات رنة خاصة ، وهذا يومىء الى أن الشاعر لايريد أن يجشم القارىء عقبة العناء في القراءة ، وحتى ينأى به عن تعسر الفهم والتذوق ، وهو ما يفتقر الى مثله كثير من الشعراء المعاصرين .

ـ القافية : تتلون وتتنوع تبعا للموقف ، وهي تجيء على الشكل التالي :

في قصيدة « موانىء الاحلام » . (٣٨ ـ ٤١) :
(اجابتي ، وجهتي . الضياء ، السماء . أحبابنا . عيوننا) .
ويقول في قصيدة « السفر وصرخة الرياح » (١٣) :
(ألوانها ، رحيلها . أحشائنا ، حلوقنا . السلام ، الكلام . لا انتهاء ، في الفضاء) .

واكتفي بهذين المثلين من قصائد الديوان المختلفة ، حيث وردت اغلب القوافي ثنائية ، مما يجزم بأن الشاعر لايصدر عن شعور مزيف ، ولكن عن احساس متمعن ، وعن ادراك لقيمة دور القافية في التعبير عن الناحية الجمالية والتعبيرية .

ولا نختم الحديث ، عن الناحية الفنية دون الاشارة الى الوزن الذي اختاره الشاعر ، حيث كانت التفعيلة : « مستفعلن » تقوم بتأدية دور نغمي هام ، يوضح جمال التفعيلة ، ويبرز نبرات متصلة متواصلة : « مسـ »... حيث تعبر عن البساطة المنسرحة والسعة كما ورد ذلك في ايقاع (فاعلات) التي تكاثرت كثيرا في ديوان الشاعر، وهذا القصر وان كان يقيد القافية ، فانه من ناحية ثانية ، يجعل النغم ماضيا على سياق واحد ، والرنة المتواصلة غير مفصول بينها ، مما يحدث اهتزازات رائعة لقراءة أوسماع شعر الشاعر .

* * *

وبعد ، فاننا لم نحتفل بالدراسة الكاملة لشعر الشاعر ، لنخرج ببيان شاف يوضح فن الشاعر ومذهبه أكثر ، على أساس أن ذلك يتطلب المامة كلية بشعره ووقفة أكثر تأنيا نصل معها في النهاية الى نتيجة نهائية وواضحة أكثر . ذلك أن شعر الشاعر لايمكن له أن يدرس بناء على ديوان واحد ، ولكن من خلال مجموعته الشعرية كلها .

أملنا كبير أن نعود الى ذلك في فرصة أخرى ، يوم تجتمع لدينا نتاجات الشاعر الغزيرة . والله من وراء القصد .

وهران ـ الجزائر : محمد مرتاض

صحوة الضمير

قصة : محمد علي القرامي

نظام الكون لايتغير لموت أحد أو حتى ميلاده .. هذه حقيقة ظلت تخفق في صدر الكون منذ نشأت الدنيـا .

ولقد ادركت «وضحى» أنها أخطأت حين ظنت ذلك عندما توفي زوجها .. .اية ؟!... ها هم أطفال القرية يمرحون في ضوء القمر ، وكذلك كان أولادها عندما كانوا يستظلون بظل المرحوم الوارف ..

لقد تغيرت بعده الضحكات وتحولت الى عويل وظل الكون هو هو لم يتغير برغم أن زوجها قد مات .

* * *

تطلعت وضحى الى السماء تستنجدها وجالت ببصرها ذات اليمين وذات الشمال ثم ركزت نظراتهـا بين الاشجار حيث لمحت شبحا يتحرك .

ارتبكت وارتعشت اطرافها قبل ان تدرك ان الشبح ليس الا بقرتها المسكينة تعبر عن آلامها بنواح بدأ هزيلا ضعيفا كأنه يصدر من مكان بعيد فلم تعد لديها قدرة !!

واستلهمت المسكينة من نواح البقرة حلا لمشكلتها وقضاء على المجاعة التي تهدد ذلك البيت منذ رحيل ربه ولو الى حين .

تسللت في الظلام مسرعة تصطدم بالصخور تارة أخرى دون أن يعيقها عائق للمضي في طريق وعر متعرج لكي تبلغ « مسمار » الوصي على أولادها الايتام عن سوء حالهم ..

لم يظهر على مسمار اثر للعاطفة فلقد قابلها متجهم الوجه فبعد أن ظن الوصاية لجلب له الوجاهة فلما لم يجد غير المتاعب بدأ يتنصل منها ويفهم الارملة الثكلى انه راغب في تحويل الوصاية لجهـة أخرى ولكنهـا واجهته ..

سيدي امنحنا قليلا من الدقيق والزيت هذه الليلة وتقوم ببيع البقرة نهار غد وتتقاضى اتعابك .

خجل من رفض الطلبين معا ، فأعطاها الدقيـق واعتذر عن بيع البقرة ..

ورغم ذلك عـادت المسكينة الى اطفالهـا فرحـة مسرورة لانها ستنقذ أطفالها مـن الجوع .

وكأنها لفرط سعادتها لم تعد تذكر المرحوم .

عادت الى بيتها لتشاهد مسرحية حزينة أبطالها أطفال يتناومون وليس بهـم نوم الا التظاهر بالشبع ليريحوا الارملة من عذاب الامومة المجروحة .

* * *

لم تنفع الديك خدمة الطويلة ولا قناعته فقد كان يؤذن لهم كل فجر كأنه ساعة مضمونة .. يؤذن مجانا فهو يكتفي بما يلتقطه من حبوب الجيران ..

قالت وهي تعجن لاكبر الابناء – ناصر – في العاشرة أو نحوها أن يفيق وليست في حاجة لتكرار النداء ، فهو مضيق من قبل النداء .. وقام بنشاط غير متكافىء مع جسمه الهزيل وما هي الا لحظات حتى نفذ الاعدام بديك أحمر يحملون عنه أجمل الذكريات .

وكان أثره سحريا عجيبا فقد أعاد للوجنات الذابلة حمرة وللاصوات المبحوحة قوة وعاد الايتام البائسون كالاخرين يغنون للقمر والسحب ويرقصون في حماس.

وعادت الحياة الصاخبة الى مكان كان مقفراً أو شبه مقفر منها واطمأنت الارملة حينا بيد أنهـا أدركت أن الدقيق شيء خيالي وأن الديك عقيـم لم يخلف ديكا آخر ليقتاتوا به ليلة ثانية .

التفتت الام الى ناصر ورأت فيه ملامح المرحوم وتوسمت فيه المقدرة على تنفيذ ماكسفها فيه ولي أمر الايتام (مسمار) وهو بيع البقرة .

جلست من ابنها مجلس المعلم لتمرنه على عمليات البيع وتعلمه ، ثم طلبت منه النوم المبكر فالمهمة شاقة يوم غد لان عليه أن يسير في صباح اليوم التالي بضعة أميال للوصول الى رغدان حاضرة القرى وفيها يقام السوق .

ومع بزوغ فجر يوم الاحد – يوم السوق الاسبوعي – تسلل المسكين يمسك بيده الصغيرة رباطا في طرفه الآخر بقرة مستسلمة تنشد هي الاخرى الخلاص ، فقـد سئمت هـي الاخـرى حيـاة الـكفاف .. ووصلت مـع قائدهـا الـى مكان بـه حشد كبيرمن البقر خصصوه لها منذ نشأ هذا السوق .. ووقفت بهـدوء تجتر أو تتظاهـر وبجوارها طفـل تحتقره العين .

* * *

– بكم تبيع البقرة أيها الصغير

– بخمسمائة ريال

– حسنا سآخذ البقرة .. وعليك أن تقف هنـا يا ولدي حتى آتيك بالنقود ..

* * *

لم تكن التجربة قد حنكت ناصر المسكين ، الذي انتظر في مكانه كالمسمار لا يبرحه رغم حرارة الشمس .. حتى صدر الناس ووجد نفسه وحيدا آخر الامر .

فنصحه مشفق عرف خبره وأرشده للشرطة التي جمعت القصابين فعرف الصغير غريمه الذي أزبد وأرعد وأقسم بأغلظ الايمان لم يأخذ بقرة ولا دجاجة ولم ير وجه هذا الطفل ولم ينزل الى السوق .

ومر صمت وتحول الجاني الى مرشد ..

– الحرام يهد البيوت ... وقف الصغير

وقف الصغير مذهولا لايبدىء ولا يعيد وترك الملازم القصابين وطرد الصبي الذي رأف بـه أحدهم فنفحه ريالا ..

خرج الصغير خلفهم لا يعلم أي طريق يسلك فقادته قدماه بقدرة عجيبة لو سألته عنها لما وجد تفسيرا الى المجزرة في طرف القرية .. وسرعان ما عرف بقـايا بقرته .

انتشل قرنها وذيلها من بين أكوام الفرث . وسقطت دموعه تترى . وآوى الى ظل شجرة عرعر صغيرة .

كان يندب حظه وهو يعلم ان مستقبله الغامض ينذر بحساب عسير .. ورغم ذلك نهض متوجها الى بيت خاو ينتظره لينقذه .

لمح قبيل الغروب شبح أمه واخوته على سطح الدار .

* * *

كانت أمـه تتأمل طلعتـه الهزيلـة وهـي تقرأ المعوذتين وآية الكرسي وتناجي ربها وتسأله حمـاية البطل العائد .

وكم كانت فرحتها عندما رأته عائدا لوحده .

اذن لقد باع البقرة وعاد يحمل النقود .

وبدأت العجوز تخطط للايام .

تريد أن تشتري بقرة حلوبا رخيصـة وتتمتـع واطفالها بالباقي حتى يفرجها الله .

خرجت الام وخلفها أربعة من الصغار للقيا القادم وكأنه بطل عاد لتوه من معركة ظافرة .

ولم تنتظر كلامه بل انهالت عليه تقبله وتمسح عنه التراب واخوته كل واحد يصرخ من جهة .

ـ ماذا اشتريت لي ياناصر ؟!

وسقط مغشيا عليه سقوطه انقذه من الاجابة على الاسئلة ولو الى حين ، وان لم يؤجل عنه العقاب أو يثير الشفقة في قلب الام فقد كانت تفتش في ثوبه الخلق عن النقود .. فلم تجد غير ريال واحد ..

هربت عواطفها وتحولت الى لبوة شرسة ولم ترحم حالته فقد انهالت عليه ركلا ورفسا وهي تصرخ ..

ـ أين النقود يا فاسد ؟!

وهرع اليه القرويون في دهشة ونقلوه من بين يديها شبه جثة وهذا ما دعى أهل القرية الى اجتماع عاجل في بيت العريف ليرشوا على الصغير أكواز الماء فأفاق بعد حين .

عرفوا منه القصة وقرروا منح الايتام مساعدات عاجلة ومؤجلة .

* * *

دار الفلك وتغيرت الاحوال وسبحان من لايتغير .

فقد ذهب شبح الفاقة أو كاد عن ناصر واخوته وظهر رغم نحافته خلقا آخر نظيفا محبوبا فقد أصبح مدرسا لا يعرف الا بلقب الاستاذ بل مديرا لمدرسة محدثة في قريته .

وكأن سعادته مخلوقة على حساب القصاب الذي ظلمه منذ عقد ونصف فقد تحول شعره كله حتى حواجبه الى لون أبيض كأنه القطن وظهرت ملامحه السوداء في اطار أبيض كأنه القطن .

كما أن الدهر قد انقلب فنهب جميع أسرته في حادث مروع ولم يبق له غير العقار الذي يضرب بضخامته المثل .

وفي غمرة الاحداث وزحمتها وفي لحظات اليأس والرجاء أفاق وصحا ضمير القصاب العجوز وتمثلت امامه صورة الطفل حتى ملأت عليه تفكيره ، فالمجرم لاينسى ضحاياه بسهولة .

ولم يهنأ بحياة ولانوم حتى كتب اعلانا علقه في السوق ـ طفل مجهول ـ سلبت بقرته منذ خمس عشرة سنة لم أعطه حقها لمن يعرف عنه جائزة .

وكان الذي جاء ناصر نفسه أسرع مما تصور العجوز .

ـ أنا ناصر الراعي اسمي مدون في سجلات الشرطة ان بقي منها باق .

قال العجوز ..

ـ البحث عن موضوع كهذا في سجلات تقادم عهدها معجزة ، أما من دليل آخر ؟!

ـ أما ترى هذا الشج .. انه أثر من آثار الوالدة تغمدها الله برحمته .

ولما كان العجوز القصاب من كبار المحتالين فهو لا يسلم بمثل هذه الاقاويل ولو أن لهجة محدثه واضحة .

وواصل ناصر ..

ـ ودليل آخر ملفوف في هذا القرطاس .. قرن بقرتي وذيلها نسيتهما في منزل قديم حتى وجدتهما صدفة أول أمس .. وما زالا رغم السنين .

صرخ القصاب بصوته كله منتحبا ..

ـ يكفي .. هذا يكفي .. كم كنت ظالما

من هذه النافذة كنت المحك .

رأيتك تأخذهما من بيت الفرث

رأيتك تبكي وأنا أقهقه بضحكات من الشيطان وأشمت .. ثم آويت

فأكمل ناصر ـ الى ظل عرعرة صغيرة

صرخ العجوز ـ التوبة يارب .. رحمتك يارب

ثم أخذ الشاب وتوجها الى المحكمة

ـ سيدي القاضي .. اعترف بجرمي

وأرجو أن تكتب عقاري كله لهذا الشاب .

ثم يطلب من ناصر أن يعطيه ذيل البقرة وقرنها .

* * *

لقد كفر المسكين بحصيلة العمر من أجل غلطة واحدة وعاد يحمل أغلى من محصلة العمر بل من كل الماديات ..

ضميرا نقيا طهره

وقرن بقرة وذيلها ..

● **السعودية ـ محمد علي القرامي**



«الفيلسوف»
لمحمد حسن فقي

حديث عن السعادة والجمال

في سلسلة المكتبة الصغيرة اخرجت المطابع حديثا كتاب « الفيلسوف » الاديب محمد حسن فقي . والكتاب الذي يقع في نحو ٨١ صفحة من القطع الصغيرة عبارة عن مقالات نشرها الكاتب تحت العنوان ذاته منذ عشرين عاما في صحفنا المحلية ، ولو ان تلك المقالات قد تقادم العهد على زمن تحريرها فانها تناقش امورا باقية القيمة سيظل الانسان يناقشها ويبحثها ويمحصها ويعيد ذلك كله دون ملل ... وهل هناك اجدر من موضوعات مثل الخير والجمال ان تناقش باستمرار وفي كل لغات الارض المكتوبة ؟.. فمنذ عرف الانسان التدوين وحتى اليوم لاتزال الصفحات تسود بمناقشات تتصل بهذه الموضوعات وفي كل بقاع الارض وبجمل لغاتها المكتوبة .

والكتاب الذي يفتتح بانقطاع الشيخ عن مريديه لفترة يدور بصورة حوار بين المريدين وشيخهم الجليل ليبصرهم بما يغمض عليهم من شؤون الحياة ويتحدث اليهم عن موضوعات ظلت تجتذب اهتمام البشرية منذ عرفت الكتابة .. يعود الشيخ الذي « هو بحر لاحدود له ولا قرار أو اقل عنه محيط تتقاهر عن ادراك حدوده واغواره النفس والابصار ، لم تكن له مؤلفات ولكن محاوراته لو انها سجلت ثم جمعت ثم طبعت في اسفار لكان منها العشرات التي تمتع وتفيد » .

لاشك في ان المدينة الفاضلة « اليوثيوبيا » اجتذبت الفكر العربي في عصور ازدهار الحضارة العربية ومنذ تراجم اعمال الفلاسفة الاغريق وغيرهم وحاول ذلك الفكر الوصول الى تحديد ماهيات الحق والخير والجمال اضاف الفلاسفة العرب الذين قد يعجز عنهم الحصر اضافات اساسية للفكر الانساني في هذا الاتجاه .. جاء خاطر « اليوثوبيا » عندما شرعت اقرأ في مستهل الكتاب حديث الشيخ عن الخير فهو ان تعرض نفسك على انتهاج اقوم السبل وان تكون اوعرها واكثرها — هبة ومشقة .. انك بذلك — ان استطعته — وهذا ليس بالقليل تحسن الى نفسك او في احسان كما تحسن الى الحياة والاحياء بنفس هذا المقدار الطيب انك به ستتقبل الاذى والاساءة والعقوق وكل ما يتحدى ويجرح » .

ثم يتحدث الشيخ عن الباطل فيعرفه على اعتبار انه « ما استنكرته الشرائع السماوية وابته التقاليد الكريمة ورفضته الضمائر القويمة فهو الحق والحق على طرفي نقيض » .

اقول ما احوج الناشئة في المجتمع الى تدارس مثل هذا الكتاب الذي يتكلف في ايصال المفيد الممتع الى قارئه بمحاورات يكسر حدة التلقي فيها تبدل الحوار وتباينه وتنوع موضوعاته ، واني لفي اكيد يقين بأن اختيار مقتطفات من هذا الكتاب لتدريسها للناشئة ستعود عليهم بالخير العميم لما فيها من اسلوب بسيط واضح جميل قد يعينهم في المستقبل عند تطور معرفتهم بألوان من الانشاء والكتابة الادبية ذات العبارة السلسة والجمال الذي يبعد عن التقعر والتكلف ويرتفع عن الابتذال والفثاثة ...

ويستطرد الشيخ متحدثا عن العقل والحس والجمال فيقول عن الاول : « فهو هذا النبراس الذي ميز الله به البشر على من سواهم من مخلوقاته وهو شيء معجز محير احتار العلماء والفلاسفة في وصفه كما اختلفوا في نقره من هذا الهيكل وان يكن أكثرهم يميل الى انه يثوي تلافيف المخ » .

ويمضي الشيخ فيحدث مريديه عن العلم والفلسفة وكيف ان العلم لا يعرف الا الواقع الماثل والفلسفة كيف انها تفكير دائب وتأمل مستمر يتمخض عن نظريات وآراء . ثم يعرض للسعادة وللفن وللجمال فيعرف السعادة بانها « الشعور بنشوة من عمل عملناه أو قول قلناه فكان له اثر طيب فيما حولنا ومن حولنا » .

وعن الفن يقول : « هو زبدة مافي حياتنا من خير وجمال ومن رقة ووداعة ومن سمو وترفع » وعن الجمال « انه اية من ايات الله الكبرى الذي نسبح له ونقدس له حينما يجتذبنا اجتذابا » ثم يستطرد في تحديد مقاييسه وموازينه بين الناس ثم يتحدث عن الجمال في مجال الطبيعة ..

ويرد الشيخ على سؤال عن الشعور بالمسؤولية فيقول : « انها قمة من قمم الخلق الانساني » ...

ويرد على سؤال اخر حول الغنى والفقر واثرهما في النفس البشرية ثم يعرض للغنى الشاكر والفقير الصابر ويختتم الشيخ حديثه لمريديه حول الدين والعلم .

محمد طه جونير

رسائل الأصدقاء

الى الشاعرة هند هارون ـ أم عمار

أختي الكبيرة أم عمار

بكل الظمأ المجتاح ثنايا القلب . وبكل الشوق المزروع في ومضات العين . تلقيت « ديوان عمار » سمفونية الام الثكلى . تباريح القلب الموجع . انسياب الروح المتسامية فوق المادة حروفا على صفحات الورق البيضاء . وللروح حديث اسطوري السمات ملائكي النزعه . والالهام .

« ديوان عمار » وأناشيد تكتبها حبات الجمان الناصعة البياض تنهمر جداولا من محبة ووفاء وحنان من معين عين الامومة . وياالله ما أروع جمان عن الامومة .

« ديوان عمار » وترتيل صلاة الانسانية المعذبة على صليب نواميس الاقدار وهي ترسل أحكامها التي لا مشيئة لنا في تقبلها ولا قدرة لدينا لتفسير كنهها أو كنه الارادة العظيمه الجبارة التي تطلقها .

بحار من الشعر والشعر ليس الا البحر بنسيمه العليل . برقراق مويجاته الحالمه . وبهدير أمواجه العاتية . بصفحته الزرقاء التي تطلق المدى آمالا وتفاؤلا وسعادة . وبأعماقه الداكنة التي ترسل اليأس والاسى والحرمان . وبين الصفحة الزرقاء والاعماق الداكنة تتالى حياة الانسان منذ الازل وحتى الابد .

اذن فالشعر هو الحياة . و « ديوان عمار » هو الحياة في مهرجان الموت الرهيب .

لقد قرأت الديوان . أو لاقل أبحرت مع الديوان في رحلة بحرية كان الحرف شراعها والصوره مويجات بحرها . وبين الحرف والصورة تذهب الروح سكرى في خمرة الرهافة والاصالة وصدق الاحساس .

ففي اناشيد الديوان رأيت « عمار » يجلس بين الصفحات . يبتسم ، يتكلم ، يكتب ، يرسم ، يلعب وقبل كل شيء يعانق أمه ويشرئب على أكتاف أبيه .

كلمات عمار المكتوبة صارت منابع الهام . صور عمار المرسومة لوحات تحكي قصة عمار وكل عمار في هذه الحياة . أشياء عمار ، سريره ، مفكرته ، دراجته ، تمرده ، وعنفوان الشباب لديه . كل ذلك أصبحت شيئا من طيف ! أقول بقايا من نكهة انسان يستعبد الشعر في محرابه .

هذا المعين العظيم من امتزاج الانسان في الانسان جامح « فوق منطق العقل المتجمد في قوانين المادة المتحجرة اليابسة الجافة ، ثائر على كل ما ابتدعوه من نواظم الحياة الاجتماعية الاقتصادية هادم لكل انانيات وجشع وزيف الروابط المتوهه المجنونة والتي تقوم على اكتاف شيطان المصلحة الشخصية .

هذا البركان المتفجر من أعماق الامومة باحلى الوانها زنجية بيضاء . قوس قزح أسود التفاصيل . قرنفلة صفراء . نرجسه زرقاء .... اضمومة من تواشيح الليل المبهروهي ترسل تراتيل فجر هو الحقيقة بذاتها .

لقد جسدت في عمار كل طفل في العالم . فلقد تجسد عمار في اطفال افريقيا الذين يموتون تحت سياط الجوع . واطفال فلسطين الذين يسقطون تحت لسع لهيب القنابل المدمرة . وأطفال (هيروشيما) و (ناغازاكي) و (لينىنغراد) وبور سعيد و « بيروت » . كل هؤلاء تجسدوا أمام عيني وانا اقرأ « ديوان عمار » ليس عمار حالة خاصة وليس عمار معنى ضيقا تسيء خصوصيته له . وليست أم عمار هي « هند هارون » فحسب انها الام بكل القدسية المطلقة التي تحملها كلمة أم . بكل الغيرية التي تعنيها وتمارسها وتحياها كل من حملت شرف هذا اللقب الذي هو اعظم وأرفع من كل الالقاب ، لقب « أم » في ديوانك يا أم عمار . رايت أمي الفلاحة البسيطة وهي تبكي اختي الصبية السمراء بنت العشرين عام . رايت جدتي العجوز وهي تندب عمي ابنها ، الذي ما تخطى العقد الثالث من عمره . رأيت نساء كثيرات ... كثيرات ... وأبناء كثيرين ... كثيرين ... فديوانك هذا هو بحق . ديوان الامومة الجريحة اينما وكيفما كانت ..

في نهاية هذه الخواطر ... والتي كتبتها نبضات من شرياني الابهر وهو يحمل قطرات الدم الدماغي الذي تأثر بما قرأ وليدي التي راحت تكتب ما أملتها عليه آيات الديوان الرائعه . أجد نفسي مجبرا على النهاية شاكرا لك اهداءك الرقيق . وهديتك النفيسه . آملا ان يمد الله في عمرك . كي تتحفي حياتنابأكثرمن ديوان ليس عن الجراح والحزن فحسب بل ايضا عن الفرح والسعادة . وتقبلي تحياتي واماني الطيبة والسلام

اللاذقية ـ الدكتور عنان شعب

الاخ الاستاذ عيسى فتوح

تسلمت عدة أعداد من جريدة « تشرين » السورية الغراء ، ومهما حاولتم أن تقدروا فرحي بمقالكم القيم « من أجل نافذة لمحمد زفزاف » المنشور في الصفحة السابعة من العدد ١٦٩٠ تاريخ ١٩٨٠/١١/٢٥ ، فلن تستطيعوا ، ذلك أنني أحسست بصدق الادب العربي في المغرب الحبيب يتردد في أرجاء سورية الشقيقة ، اذ ذاك حمدت الله على أن الرسائل المتبادلة بيننا ، قد نسفت البعد الجغرافي والعوامل الاخرى التي تحول دون تفاعلنا . الا أنني — وأثناء اطلاعي على الاعداد الانفة الذكر — ارتأيت أن أصحح بعض الاراء التي لاتتحملون ادنى مسؤولية في طرحها ، لانها شائعة هنا وهناك ، ولم تجد حتى الان من ينهض لتقويمها ، وأوكد مرة أخرى أن هـذه الاراء الخاطئة في نظري ولدى الكثيرين ، لا تعود في الاساس الى مضمون مقالكم ، بل الى الفقرات المستمدة من الاستجواب الذي أجراه ادريس الخوري مع محمد زفزاف ، وليس الهدف من تصحيحه هذا الا وضع النقاط على الحروف ، وارجاع الامور الى نصابها ، كما يقال في مثل هذه الحال .

أجل ! انني متفائل جدا — حسب رأيكم — وبالفعل ، فانني متفائل الى أبعد الحدود . لماذا ؟ ان اهتمامي الكبير والمتواضع في ان بالادب المغربي والثقافة المغربية بصفة عامة ، وما يتعلق بهذا الحقل الواسع من نشر وتوزيع ... هو الذي حفزني الى هذا التفاؤل . فنحن لانعاني أزمة نشر ، بل العكس هو الصحيح ، والادلة على ذلك كثيرة جدا وهي كما يلي :

أولا : ان أغلبية النقاد والشعراء والروائيين والقصاصين أساتذة ، اما في جامعات ، أو في كليات أو في معاهد عليا ، أو في ثانويات ، ما علاقة هذا بالنشر ؟ .

العلاقة حميمة ، فالاجور المرتفعة بطبيعة الحال قادرة على أن تسدد تكاليف الطبع والنشر والتوزيع ، ولهذا نرى الكثيرين من أدبائنا يصدرون كتابين أو ثلاثة خلال السنة الواحدة .

ثانيا : هناك دور نشر بالمجان ، لكنها تشترط الجودة شكلا ومضمونا ، وأذكر على سبيل المثال « دار النشر المغربية » التي أصدرت لادريس الخوري نفسه طبعتين من مجموعته القصصية « ظلال » ، والحقيقة التي لا مراء فيها أن ادريس الخوري هذا ، قاص مغربي ذو شهرة واسعة النطاق ، نظرا لقيمة قصصه الفنية ورصده لحالات اجتماعية دقيقة ، وهناك مجموعة شعرية للشاعر الكبير محمد الفرقاني ... وهناك عدد كبير لا يحصى من المجموعات الشعرية والقصصية الصادرة عن هذه الدار . ثم « دار الثقافة » التي نشرت نتاجات ابداعية عديدة ، ككتاب « الشعر الوطني في عهد الحماية » للدكتور ابراهيم السولامي ، وكتاب آخر له بعنوان « تأملات في الادب المعاصر » . و « دار الرشاد الحديثة » التي لم تكتف بنشر ابداعات مغربية ، بل تجاوزتها الى أخرى مشرقية كديوان « الفارس والعتمة » للشاعر السوري محمد حمدان ... ومطبعة « الرسالة » التي يرجع لها الفضل في ابراز نتاجات الاحياء والاموات على السواء .

واذا أضفنا الى هذه الدور الجهد الذي بذله اتحاد الكتاب في المغرب في مجال النشر ، كديوان محمد الاشعري « صهيل الخيل الجريحة » ورواية « أبراج المدينة » والعمل المشكور لاتحاد الكتاب العرب بسورية بنشر مجموعات قصصية وشعرية منها « دائرة الكسوف » لمصطفى يعلى و « عيون تحت الليل » لمبارك الدريبي ، وكتب لكل من محمد أديب السلاوي ومحمد الطوبي ... اذا أضفنا هذه الجهود الكبيرة الى ما قلناه سابقا ، فيتجلى لنا أن أزمة النشر غير موجودة بتاتا في المغرب ، ونسيت أن أشير الى « نادي القلم » بالدار البيضاء الذي نشر لشاعر واحد خمسة دواوين ، فما بالكم بالادباء الاخرين ؟ .

ان تفاؤلي مستمد من الواقع الزاخر بالعطاء الذي أحياه ، وكل انسان ينطلق من خلفيات ، لابد أن يخطىء في التصور ، أما الذي ينطلق من الصفر — تبعا لقواعد « ديكارت الاساسة » أي الذي لا يرتكز على نوايا مسبقة ، فستكون الحقيقة ، ولا شيء سواها ، مرماه .

ونقطة أخرى بدت لي وأنا اتمعن الفقرة التي تتعلق بجريدة « العلم » ، فالذي لا يجهله أحد من مؤرخي الحركة الادبية أن زفزاف والخوري والسولامي والاشعري والطريبق حسن ... وغيرهم كثير لا يحصى ، يرجع الفضل في تكوينهم واثراء تجربتهم الادبية الى جريدة العلم وأسرتها التي مافتئت حتى الان تسد فراغا فسيحا في الساحة الثقافية ، ويمكنكم الاطلاع على العدد الخاص بالادب المغربي من مجلة « الاداب » اللبنانية لتتأكدوا من صحة قولي .

فلا ينبغي — والحالة هذه — أن ننكر جهود هذه الجريدة وما حققته من مكاسب أدبية طوال نصف قرن تقريبا .

كما لا ينبغي أن نتناسى دور الادباء الاوائل في ارساء قواعد القصة المغربية والشعر المغربي ، اذ بفضلهم وتشجيعهم للناشئة ، استطاع الادب المغربي أن يصمد أمام مختلف التيارات والاحباطات .

والمسألة العامة هي أن الادب المغربي لا يمثله محمد زفزاف فقط ، بل كل الادباء الموجودين على الساحة المغربية ، والذي دفعني الى هذه الملاحظة هو أن الاغلبية من اخواننا في المشرق العربي ، يتناولون الادب المغربي من خلال زفزاف ، بينما — والحمد لله — يتوفر المغرب على مئات الشعراء والقصاصين والروائيين الذين يبدعون باستمرار ، وأثبتوا حضورهم الادبي ، فعلى مستوى الرواية هناك : الحمداني حميد ، ومبارك ربيع ، وابراهيم بوعلو ، وعبد الكريم غلاب ، ومحمد الاحسايني ... وعلى مستوى القصة هناك : الميلودي شغموم ، وعبد القادر السحيمي ومحمد قنديل ، ومصطفى اجماهري ، ومحمد صوف ، وأحمد بطا ، وبوشته حاضي ، وأحمد المديني ، وعبد الكريم التمسماني ، ومحمد المصباحي ، ومبارك الدريبي ، وادريس الصغير ، وعبد الرحيم مودن ، ومصطفى يعلى ... وعلى مستوى الشعر هناك : حسن الطريق ، ومحمد الاشعري ، ومحمد الحبيب الفرقاني ، ومحمد الحلوي ، وعبد الكريم بن ثابت ، ورشيد المومني ، وأحمد المجاطي ، ومصطفى المعداوي ، وعبد العلي الود غيري ... وعلى المستوى النقدي هناك : محمد براده ، وعبد الله كنون ، ونجيب العوفي ، وابراهيم الخطيب ، وادريس الناقوري ... وأسماء أخرى لا تحضرني الان ، لانني ارتجل هذه الكلمة على صفحات رسالتي هذه ، وعلى كل فللموضوع بقية ...

القنيطرة — المغرب — العربي بنجلون